# سبع شداد

**الطبعة الأولى**
**١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م**

**رقم الإيداع: ١٤٠٤٣/ ٢٠١٩**
**الترقيم الدولي: I.S.B.N**
**978-977-764-149-9**

**جميع الحقوق محفوظة**
**يمنع طبع هذا الكتاب بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل الصوتي والمرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الطرق إلا بإذن خطي من الكاتب**

**دار المعرفة للنشر والتوزيع**

**خلف جامع الأزهر - بجوار مسجد عليش**

**ت:** ٠١٠٠٨٥٨٤٨٢٠ - ٠١١١١٣٢٢٦٦٨ - ٠١١٤١٢١٢٨٠٥

Email.elmarefa@hotmail.com

نردين أبو نبعة

# سبع شداد

دار المعرفة

# الإهداء

ويخفف الله عنا قسوة الدنيا ..
بزينة الدنيا ..
إلى أولادي وبهجة روحي ..
**أنس وزينة** ..

# الفصل الأول
# صيف ٢٠١٢

«خُرِّيْفِيَّة[1] وحدة ياستي».. فقط واحدة.

لا أستطيع أن أحكي لكم أكثر من حكاية؛ فحلقي جاف وجسدي واهن والطائرات لا تتوقف عن القصف، والطنين في أذني لا يهدأ وقرصات معدتي تكويني.. لا أدري إذا كنتم تستطيعون سماعي بوضوح؟! الوقت قد تأخر كثيرًا ويجب أن نصحو باكرًا.. فقد تعود أمكم صباحا، ويجب أن نحسن استقبالها فهي بالتأكيد مرهقة ومتعبة.

صلوا على النبي ياستي..

ـ اللهم صل على سيدنا محمد

ـ وحِّدوا الله

ـ لا إله إلا الله

ـ انصتوا ياستي.. وما تقاطعوني.

كان يا ما كان في قديم الزمان.. شاب حلو.. أسمر وعيونه

---

(١) خُرِّيْفِيَّة : حكاية وقصة.

واسعين وِسع الفنجان.. طويل مثل عود الخيزران، ولأنه أطول واحد في البلد كلها سموه «ظريف الطول»

وظريف الطول غريب ديار.. أي أنه ليس من البلد التي يسكن فيها.. جاء للقرية حتى يكسب الرزق.. إذا نظرت إليه وهو يعمل في منجرته من الفجر إلى غروب الشمس ترى أصابعه النحيلة الماهرة والسريعة التي تنشر الخشب وتدق المسامير وتصنع الصناديق الخشبية والخزائن للعرائس ولا تكاد تلمح وجهه الصبوح إلا عندما يمسح حبات العرق التي تتلألأ على جبينه..

في كل يوم تأتي إليه نساء البلد.. مرة للفت انتباهه لبناتهن.. ومرة لصنع خزانة أو صندوق ما.. ومرة لإصلاح بعض الصناديق.. النساء يتجمعن عنده كل يوم، ومع ذلك كان لا يرفع بصره في أي منهن.. وانتشر صيت ظريف الطول في البلد التي تطل على بحيرة طبريا والملأى بأشجار البرتقال وسنابل القمح والخيول العربية الأصيلة.. حيث البيوت العربية ذات السقوف المرتفعة، وحيث الجدات يجلسن عند عتبات البيوت يرتدين أجمل الثياب المطرزة ويتبادلن الأحاديث، فيما الأحفاد يلعبون بأذيالهم، والقطط الشقراء والسمراء تتمدد بجانبهم تنصت لأحاديثهم الشيقة.. فيما صفارة القطار تدوي عاليًا كلما مرَّ من القرية صوب الحجاز أو مصر أو الشام وإسطنبول.

وظريف الطول كان يعد نفسه محظوظًا؛ لأن أهل القرية أحبوه ووثقوا به وبعمله، وكانت النسوة يرسلن إليه أرغفة خبز الطابون الأسمر، وأوعية نحاسية ملأى بالحليب..

لكن ياهول ما حدث.. ففي إحدى الليالي وبينما ظريف الطول في طريقه للبيت إذ هجمت عصابة مسلحة على القرية.. فقتلت عددًا كبيرًا من الشباب، ونهبت ما كان في البيوت من مؤونة، وخلطت السكر بالزيت والملح، واختفى ظريف الطول فجأة من البلد.. غاب عدة أيام حتى أخذ أهل البلد يبحثون عنه بين الشهداء وفي زقاق القرية وظنوا أنه استشهد.. لكنه عاد بعد أيام ومعه بنادق كثيرة وزعها على أهل البلد حتى يستعدوا لأي هجوم قادم من العصابات الصهيونية.

لكنه تفاجأ بأهل القرية بأنهم ينوون الرحيل ويستعدون له خاصة بعدما سمعوا حكايات القرى المجاورة وماذا فعل بهم الصهاينة من بقر لبطون الحوامل وقتل للرجال والشيوخ والأطفال.. لكن ظريف الطول استطاع إقناعهم بالعدول عن رأيهم ووعدهم بأن يزودهم بالبنادق ويدربهم على استخدامها حتى يقفوا في وجه العصابات ويمنعوا سقوط البلد بأيديهم.

وما أن تناهى إلى مسامع العصابات الصهيونية هذا الخبر

وبالتعاون مع بعض الخونة والعملاء في القرية حتى فُرض حصارًا على القرية، ونصبوا القناصة على مداخل القرية ومخارجها، ونفدت المؤونة من قمح وشعير وزيت وزيتون، وماتت الدواب التي انتشرت رائحتها النتنة في أرجاء القرية.. وفي تلك السنة لم يثمر شجر الزيتون ولا البرتقال، وبدأ الناس يقطفون أوراق الأشجار ويحمسونها على النّار ويشربونها مع الماء.. بعضهم استساغ الطعم على مضض والبعض الآخر لم يستطع بلع لقمة واحدة لمرارة الأوراق.. .وفضّل البقاء على الجوع.

لم يمض وقت طويل حتى صارت البلد بلد أشباح.. لا صوت ديك.. ولا نهيق حمار ولاعواء كلب ولا مواء قطة ولا صهيل خيل.. فكل الحيوانات أُكلت حتى الكلاب والقطط خاصة بعدما اعتلى إمام الجامع المنبر وأباح أكل كافة الحيوانات حتى القطط والكلاب.

رويدًا رويدًا فقد الناس أصواتهم من الجوع.. اسودّت وجوههم وانهارت قواهم.. فكنتَ تدخل إلى البيت فترى الناس ممدَّدين في الزوايا بلا حراك ولا أصوات.. وقد تدخل إلى بيت فتجد كل من فيه ملقى في جانب وقد أكل الموت منهم وشرب.. وكأنهم أعجاز نخل خاوية.

البعض كان يقوم بنبش التراب للبحث عن بقايا عظام أو فتات خبز، وصار الناس هياكل عظمية يستطيع الواحد منهم أن يعد عظام جسده عظمة عظمة. لا أدري ماذا أقول لكم عن عذاب الجوع الذي أصاب أهل القرية.. فكم كان صعبًا أن يموت الأطفال أمام أعين آبائهم، وما أبشع أن يضطر المرء إلى أكل لحم الميتة والجيف الملقاة في الأزقة وبين الطرقات.

في هذه الأثناء خرج ظريف الطول إلى الدوار الرئيسي في البلد وصرخ في أهل القرية وقال:

ـ لا تستسيغوا دور الضحية.. فلا ضحية إلا الصامت!!

نظر الناس إليه من نوافذ بيوتهم.. لم يحركوا ساكنًا وكأن صمت الإنسان عن وجعه وألمه يُميت شيئًا داخله.. فعندما يصمت الإنسان على الظلم فإن شيئًا ينطفئ داخله ولا يعود يتوهج أبدًا.

كل من في القرية كان عاجزًا.. صامتًا إلا صبية صغيرة يقال إنها ابنة المختار.. خرجت من بيتها وتوجهت إلى الدور.. تدق بابًا بابًا.. تقايض قلادتها الذهبية بكيلو طحين، ولكن البيوت خالية والكل يردّها ويصفق الباب في وجهها.. إلى أن وصلت إلى بيت أبي سالم.. فألقت أمامه القلادة ذات العشر ليرات ذهبية المصفوفة على خيط سميك أسود وقالت لأبي سالم:

ـ بيتك مليء بالطحين.. خذ هذه القلادة ثمنًا لكيلو طحين أُطعم به أمي وأبي وإخوتي الصغار!!

أظنكم عرفتم من يكون (أبا سالم) إنه الجاسوس في القرية، ولذلك كانت العصابات الصهيونية تمده بالطعام والشراب حتى يُسهل لهم حصار القرية.

وما أن خرجت بنت المختار من بيت أبي سالم ومشت قليلًا حتى تكاثر عليها الناس من كل حدب وصوب وأخذوا كيس الطحين منها وبعد معركة طاحنة بينها وبينهم لم يبق معها إلا حفنة على قدر كفها من القمح.. أخذتها وعجنتها وخبزتها وحملت الرغيف ووقفت على علية بيتهم وصرخت بأعلى صوتها:

ـ الله يديم علينا الجواسيس والعملاء.. خيرهم عمَ وفاض علينا.. فقد باعوني رغيف الخبز هذا بعشر ليرات ذهبية..

الناس تكالبوا علي واخذوا الطحين مني.. ولا أدري لماذا لا يهجموا على العملاء والجواسيس ليأخذوا ما في بيوتهم من قمح وشعير وطحين!!

سمع ظريف الطول بنتَ المختار وأحس أن صوتها هو صوته الذي غار من الجوع والإعياء.. وتمنى لو كان مكانها وفعل فعلها واشتعل قلبه بالحب لهذه الصبية الشجاعة وأمسك بالبندقية وبدأ

يطخ على الجواسيس الذين ملؤوا البلد.. وخرج الجياع من بيوتهم صوب بيوت الجواسيس الملأى بالزيت والزيتون والطحين والشعير.. ثم توجه ظريف الطول صوب القناصة وأطلق نيران بندقيته صوبهم وهاله أنهم لا يردّون عليه ولا يبادلونه الطلقة بالطلقة!!

مشى صوبهم بحذر.. اقترب منهم.. ليكتشف أنهم مجرد دمى محشوة بالقش والصوف!!

ومن يومها حمل الناس سكاكينهم وبنادقهم وحجارتهم ولم يعودوا يهابون العدو.. لكن الغريب في الأمر أن هذه الدمى الصماء المحشوة بالقش والصوف والقطن تناسلت وذهبت إلى الدول المجاورة وصارالناس يرونها في كل مكان.. في سوريا ومصر وليبيا والعراق إلخ

حينها عاهد ظريف الطول نفسه أن يلاحق هذه الدمية أينما كانت.. فصار يتنقل من بلد إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى.. بينما بنت المختار تقف على العلية تنتظر ظريف الطول.. وتغني:

يا ظريف الطول وقف تا قولك..

رايح على الغربة وبلادك أحسن لك

خايف يا ظريف تروح وتتملك..

وتعاشر الغير وتنساني.. .أأأأأناااا

**الكتب تمنح الحب وتدلك على طريقه**

لم يسبق لها أن خرجت من المخيم في وقت الحصار إلا بصحبة زوجها.. لذلك عندما خرجت في ذلك اليوم وحدها كان الأمر مخيفًا ومرعبًا بالنسبة لها.

أخذ الصغار يبكون ويتعلقون بطرف ثوبها، انزوى الأب بعيدًا والدموع تتلألأ في عينيه دون أن تهطل، خطت الأم عدة خطوات خارج المنزل وقالت وهي تكزُّ على أسنانها وتمسح عينيها بطرف كُمها حتى لا تتغبَّش الصورة التي ترى بها أطفالها للمرة الأخيرة قبل ذهابها:

ـ ادخلوا البيت بسرعة قبل أن يشتد القصف.. لن أتأخر عليكم. ساعات قليلة وأعود إليكم بالطعام.

انفجر الصغار بالبكاء وأخذوا يشهقون جوعًا وخوفًا.. سحبهم الأب واحدًا واحدًا.. حوّط الأطفال الأربعة بذراعيه.. ثم اقترب من زوجته وقال بلهفة:

ـ بالسلامة.. أسرعي فلا أحد يخمِّن ما الذي سيحدث بعد دقائقَ فالأمور تتطور بسرعة.

بلعت الأم ريقها وركضت بسرعة نحو المخرج الوحيدِ لمخيم

اليرموك والذي تسيطر عليه القيادة العامة.. نظرت نظرة أخيرة للخلف.. التقت عيناها بعيني زوجها.. استدارت بسرعة وشعرت بأنها لن ترى عائلتها مرة أخرى!!

***

كان مؤيد يختلس النظر إليها من وراء رفوف المكتبة.. .يراقبها وهي تقرأ، صبية غضة نحيلة وطويلة.. حنطية اللون بخصر دقيق وملامح رقيقة، لها أصابعُ ملساء ناعمة كالورق الذي تلمسه فيغدو حارًا ودافئًا، يراقبها وهي تلتهم الكتب وتركض وراء الحروف والكلمات برشاقة ودهشة ترتسم في عينيها اللوزيتين العسليتين.. الآن تهُبُّ عليه رائحة منعشة ورائقة تشبه رائحة الوردة التي سُمِّيت باسمها، إنها خزامى، اسم على مسمَّى.

كم تمنى مؤيد أن تلتفت له كما تلتفت لتلك الكتب، هو لا يحب الكلام كثيرًا، يتهمونه بحب الصمت والعزلة لكنه في هذه اللحظات التي يراها فيها يتمنى لو يذهب إليها ويحكي معها، لكن كلماتِه تبرُد قبل أن تخرج من فمه!

كان عاجزًا عن المبادرة، لربما بسبب المسافات بينهما.. فهو يقترب من الثانية والثلاثين وهي على ما يبدو لم تتجاوز العشرين!

أخذ العرَق يلتمع على جبهته وعند مفرق شعره الذي فقد منه

الكثير، أصابه شرود مفاجئ عندما دخلت إلى المكتبة ذات يوم ترتدي فستانًا بلون التفاح الأخضر وقد عكس لونُ الفستان على عينيها فزادتا التماعا.. تأملها طويلًا دون أن يجرؤ على الحديث معها..

في كل أسبوع تأتي خزامى إلى مكتبة مؤيد الواقعة في شارع لوبيا.. تطارد الكتب بين الرفوف، لا تسأل صاحب المكتبة عن أي كتاب بل تحاول أن تجد الكتاب بنفسها.. وكأنها تجد متعتها في التجوال بين أغلفة الكتب.. الكتبِ التي تمنحها الدفء والحماية والحب والعناية.. الكتبِ التي تعتني بروحها وتجعلها ثريَّة وقوية وصُلبة وفي أحيان كثيرة تشعرها بأنها عملاقة وأكبر من كل الذين حولها وأكثر احتمالًا للوجع!

ومع أنها لم تحاول يومًا أن تسأله عن أي كتاب إلا أنها فاجأته ذات يوم بالسؤال:

ـ لم أجد كتاب (الجريمة والعقاب لدوستويفسكي) لقد أتيتُ الأسبوع الماضي ولم أجده وهذا الأسبوع ولم أجده أيضًا!

ابتسم مؤيد وأخرج الكتاب من الدرج قائلًا:

ـ أنهيته للتوّ.

كان من عادة مؤيد أن يدوِّن مشاعره وملاحظاتِه.. أسئلته

واستفساراتِه.. آراءه المخالفة لرأي الكاتب.. تصحيحه لبعض المعلومات الواردة، كان يتذوق الكلماتِ ويترك على صفحات الكتب التي يقرأها نُتَفًا من روحه وحزنه وغضبه وعشقه، وهذا الأمر جعل خزامى تبدأ بطلب الكتب التي قرأها مؤيد من قبل.. وكأنها وجدت لكل كتاب ظِلًا وروحًا أخرى.

تقرأ الكتب التي قرأها مؤيد من قبل.. تبدأ الحكاية من إضاءاته.. وكأن كلماتِه التي دونها نوافذُ تفتح بها المغاليق، فعندما تختلط الكتب بروائح من سبقك يصبح لها وقعٌ آخر.

تضع مشاعرها وملاحظاتِها وخطوطًا حمراءَ تحت الجُمل التي راقت لها والأسئلة التي داهمتها ثم تعيده إلى مؤيد لتحمل الكتبُ روحها وروحه ويحتفي بها بطريقته.

المشاعر المدوَّنة والكتب المتبادَلة والكلمات الوليدة التي توضَع على هوامش الكتب هي مرايا تعكس ما يجول في الخواطر وكأن هذه الكتبَ المتبادلة مكنت مؤيدًا وخزامى من رؤية نفسيهما بوضوح أكثر ومعرفة كلٍّ منهما للآخر.

ذات مرة دوّن مؤيد جملة على الغلاف الداخلي لإحدى الكتب:

«وكأن الكتاب الذي تلمسه روحك يشبه الحبَّ الأول يبقى صدى كلماته ورائحة حروفه وملمس أوراقه مشتعلة في الذاكرة

مهما بعُد الزمن.»

أخذت خزامى الكتاب وعلّقت تحت جملة مؤيد:

«الكتاب الأول هو الذي يضيء روحك فلا تعود كما كنت أبدًا وقد يكون هذا هو الكتاب العاشر في التعداد لكنه الأول الذي يجعلك تحلق أبعد من حروفه وتفهم نفسك وتجدها بين السطور.. يجعلك تتحدى وتتغير»

وأعاد لها الكتاب وكتب:

«الكتب تمنح الحب وتدلك على طريقه»

كانت تقف قبالته وهي تقرأ ما خطَّته يداه.. كانت تتلصَّص عليه وتسترق النظر إليه بين الفينة والأخرى فجأة انتبه لعينيها وعرف أن قصتهما قد بدأت.

## لا يتوقف قلب الإنسان بالموت.. بل يتوقف عندما يستسلم

غابت خُزامى عن عينيه، وشوك انغرس في حنجرته وكأن دموع العالم تجمعت في تلك البقعة. لم يكن يريدها أن تخرج لكنها أصرّت كما نسوة المخيم اللواتي يخرجن بدلًا من أزواجهن أو أولادهن الذين يتم اقتيادهم إلى جهات مجهولة بمجرد وصولهم عند الحاجز!!

ولما كان الحصار الجزئي قد أنهك المخيم وأنهك أطفالها فقد كانت تخرج هي للبحث عن الطعام..

كانت تشتم رائحة ما سيحدث؛ لذلك قامت قبل الحصار الجزئي وتزامنًا مع اندلاع المظاهرات في الأحياء المجاورة للمخيم بتجفيف الملوخية والبامية والبازيلا والبندورة وخزّنت الزيتون، وبعد أن أحسّت بأن الوضع سيزداد سوءًا بدأت تنزل إلى السوق بصحبة مؤيد وتشتري أي نوع متوفر من الخضار وتجففه، حتى الخبز كانت تشتريه وتجففه في الشمس.

في فترة الحصار الجزئي على المخيم لم تكن تخرج خزامى خارج المخيم فقد كانت تشتري من النساء اللواتي يخرجن للتسوق.. ولم يكن يُسمح لأي سيدة بإدخال أكثر من اثنين كيلو من أي طعام.. سوى الطحين والرز والسكر فقد كان يتم منعهم تمامًا.

استمر الوضع على هذه الحال ثمانية شهور، المخيم محاصر من ثلاث جهات وهناك فتحة واحدة تخرج منها النساء خارج المخيم للتسوق ثم تعود، تمامًا كما كانت العصابات الصهيونية تفعل عندما تريد مهاجمة قرية أو بلدة فلسطينية.. يحاصرونها من ثلاث جهات ويتركون ثغرة للخروج حتى يهرب الناس ولا يعودون.. لذلك رفض مؤيد وخزامى الخروج من المخيم كانا يقولان:

– لأن أعيش مع المعذبين والمساكين وأذوق الموت معهم أهون عليّ من الموت حسرة عليهم .. سنموت ألف مرة إن ابتعدنا عنهم وتركناهم .. إما أن نموت معهم أو نعيش معهم ..

لذلك آثرا أن يبقيا في المخيم لهذا السبب ولسبب آخر وهو حتى لا يعيدا حكاية النكبة الأولى !!

كانت خزامى تقول بدهشة :

ـ كنتُ أظن أن الصهاينة يتواجدون في فلسطين فقط!! لكنني اكتشفت أنهم يمدّون أذرعهم في كل مكان.. إنني أراهم هنا في المخيم!!

ونفدت المؤونة كلها.. لم يبق شيء للأطفال، حينها اضطُرَّت خزامى للخروج لشراء الطعام رغمًا عن مؤيد.

في ذلك اليوم ظل مؤيد واقفًا قرب النافذة يرقب عودتها، فجأة التفت إلى صورتها المعلقة بإطار ذهبي على الحائط، كانت تلبس فستانها الأبيض المنسدل بلا تكلف، هو خلفها يحيط بخصرها ويلبس بدلة سوداء وربطة عنق يغلب عليها اللون الأخضر، كانت عيونهما تلتمعُ ووجْهاهُما متوردين، تعلو وجهَها ابتسامةٌ تُظهر أسنانها البيضاء المنتظمة إلا من سن جانبية تعلو على أخرى بجمال لم يُر مثله!

نظر طويلًا إلى الصورة.. ثم حملها بين يديه وتمتم:

ـ أشعر بالعجز دونك.

ارتمى على الكرسي، احتضن الصورة طويلًا مطلقًا تنهيدة سريعة، أغمض عينيه، سمعها وهي ترفع صوتها عاليًا:

ـ لن أخرج من المخيم إلا إلى فلسطين.

وعندما اشتد الحصار وبلغ مداه قال لها مؤيد محاولًا التأكد من قرارها وعدم الندم عليه:

ـ لكنك كنتِ تتمنَّين السكن خارج المخيم.. الآلاف يخرجون الآن.. ما رأيك؟ هل نخرج؟

ـ لن أخرج يا مؤيد ولن أعود عن قراري ولو على قطع رأسي.

تُغمض عينيها..فتتوهج حكايا جدتها يوم خروجهم من قريتهم، السماء تمطر بغزارة، الصهاينة أمسكوا برجل أعمى ليدلهم على دار المختار وعندما أخبرهم بأنه لا يستطيع لأنه أعمى أطلقوا عليه النار ووصلوا لبيت المختار وأطلقوا النار على ابنه أمام عينه.. ما زال صوت ابن المختار يرِنُّ في أذن جدتها وهي تحكي الحكاية.. كان ينادي على أمه «يمّا طخّوني» واختلط دمه بماء المطر.. الشباب الذين كانوا مسلحين طلب منهم الجيش المصري تسليم سلاحهم ومن لم يسلم سلاحه يُعدم.

خرجوا من البلد وسكنوا في غرفة صغيرة لجمع التبن وطعام المواشي.. تشعر بحنين غريب لجدتها وحكاياها، تسمعها وهي تردد:

ـ ياريت تكسرت رجلي وما طلعت..

«طلعنا ياستي وياريت ما طلعنا.. طلعنا بالترين على سوريا.. ونزلنا في حلب وظلينا كم شهر بحارم ولما ماعجبنا الوضع قال أبوي خلينا نروح على حمص.. وفي حمص تنقلنا من مكان لمكان .. مرة نسكن بالجوامع ومرة بالمدارس.. سكنّا فترة في مدرسة الخالدية وبعدين سكنّا بالبركسات إلي صارت بعد هيك مخيم العائدين .. يفتَرُّ وجهُها عن ابتسامة رضا.. ثم تكمل ..

وربنا كان راضي علينا.. أخوي الكبير نجح بالبريفيه وبعدها درس بالجامعة وراح ليشتغل بالسعودية.. لما رجع في الصيف ليزورنا توجع لحالنا واقترح على أبي إنه ينقلنا للشام ..

وأبي فرح كثيرًا بالاقتراح وقال له :

– نفسي أسكن بالشام.. مين بيصح له الشام وبيقول لا.. هيك بنصير أقرب لفلسطين.. (فركة كعب) والشام شامة على خد الأرض مين ما بيحب يسكنها !!

وبدأ أخي يدور على بيوت بالشام.. لكن أبي رفض وقال له:

– ما بسكن إلا بمخيم اليرموك، عند أهلي وناسي وعزوتي».

ـ وأنا يا مؤيد ما رحْ أخرج من المخيم.. رح أظل زي ستي بين أهلي وربْعي.

قد أكون واحدة من الناس كانت تتمنى في يوم من الأيام أن تعيش خارج المخيم.. كنت أعتقد أني لا أحبه.. أعترف بذلك.. كنتُ أفرح كثيرًا عندما أخرج بصحبتك في آخر الأسبوع وأتجول في شوارع دمشق الواسعة.. أشعر بأن هواءها ينعشني بينما هواء المخيم يثقل على صدري.. كنت أحلم باليوم الذي أخرج فيه من المخيم.. لكن مع الحصار لا أدري ما الذي حدث لي!! صار المخيم روحي، تعلقت به، كل التفاصيل عادت بقوة الآن.. جنازات الشهداء.. جنازة فتحي الشقاقي.. ومحمود المبحوح كل جنازة تقرِّبنا من الحلم .. كل قطرة دم هي قنديل يضيء للقدس الطريق .

هتافات النسوة وزغاريدهن في المناسبات الوطنية، مسيرات العودة، الأمسيات الأدبية للشعراء، الدبكات، الأعراس، المهرجانات، المقاهي، المحلات، مقبرة الشهداء، منتدى الشاعرة ابتسام الصمادي، مكتبة الرشيد، مكتبة القدس، مكتبة عبد الحق، المسحراتي أبوحسين يعقوب وطبلته ودندته:

«يا نايم وحّد الدايم.. قوم عسْحورك خلي النبي يزورك»

بياع العوامة أبو زهير ومحله الواقع على شارع فلسطين بالقرب من مستوصف الخامس.. وحركات يده الأتوماتيكية التي يقبض بها على العجين بسبابته وإبهامه ويلقيها في المقلاة الكبيرة.. جارنا أبو محمد العباس والعنبر الذي يبيعه على زاوية ساحة الريجة.. وفول أبو يوسف الصفوري وجار ستي أبو خالد الطبراني الذي كان يترك شباك بيته المطل على شارع اليرموك مفتوحًا ليتسنى لنا نحن أولاد الحارة مشاهدة التلفاز الوحيد في المخيم..

كيف سنترك البيوت المجروحة والشوارع التي ضمتنا الضمة الأولى؟!

ماذا سنقول للنوافذ المفتوحة والتي تشتاق للغُيّاب؟ النوافذ الذي يتدلَّى منها الحنين!!

من سيَخيط جراح الأماكن ويضع الضماد؟

ـ ما فيني أطلع من المخيم.. ما فيني أبدًا وما بعرف بشو أفسر حالتي!!

يسكت مؤيد بعدما تأكد من قرارها.. ولأنه ملاذها وهو الذي يفهمها.. يفهم أن التهجير مروِّع.. فعندما تخرج لن تعود كما كنت أبدًا.. لن يعود شيءٌ كما كان.. ستفقد في كل خطوة بعضًا منك.. إنك تموت ببطء بدل أن تموت دفعة واحدة.

بدأ السلاح يدخل على المخيم ويوزَّع على الزعران.. الفصائل.. النظام.. الكل شارك في الإجهاز على آخر رمق من الضحية.

كانت تعرف أن المخيم سيصل إلى ما وصل إليه.. ومع ذلك أصرّت على البقاء.. لم تعد تخاف من البراميل ولا الطيارات ولا القصف ولا حتى من القناص.. أكثر ما آلمها هو الجوع!!

كانت تخاف أن تصحوَ؛ لأنها لا تعرف ماذا ستقول لأطفالها الجياع، وعندما تصحو تستعجل الليل.

ربطة الخبز كانت تكلف البعضَ حياته، فعندما خرج الختيار أبو حسين ليجلب ربطة خبز لأحفاده أطلق القناص ضحكة مدوية وهو يصرخ بأعلى صوته:

ـ الرقم ٦٢٥ حلمي أن أصل إلى ألف مقنوص.

واختلط الدم بالخبز.. يومها أعلنت خُزامى التمرد ورفضت أن يخرج مؤيد من البيت خوفًا من قنصه أو اعتقاله.. آثرتْ أن تخرج هي مع النساء الخارجات من المخيم لتعودَ بكيلو بطاطا وكيلو بندورة!

كان مؤيد يشعر برغم فارق السن بينهما بأنها تكبُره.. هي رفيقة روحه وأحيانًا تكون أمه يأوي إليها فتدثِّره وتزمِّله.

وعندما كان يُرهبها مؤيد بالموت.. كانت تقول له:

ـ لا يتوقف قلب الإنسان بالموت.. بل يتوقف عندما يستسلم.

خرجت خُزامى في ذلك اليوم لتجلب ربطة خبز لأطفالها وكيلو بندورة، لكن المخيم أُغلق ومُنع أهله من الدخول إليه والخروج منه، ليُعلن عن بدء الحصار الكلي لمخيم اليرموك.

لم ينطق مؤيد باسم خزامى بعد ذلك، ذُهِل الأطفال الذين لم يعرفوا تفسيرًا لاختفاء أمهم هكذا فجأة.. فهاتفُها لا يُجيب وأخبارها انقطعت تمامًا بمجرد خروجها، ولم يسمح لهم مؤيد بالسؤال عن أمهم، قال لهم:

ـ ستعود.. لا تسألوا مرة أخرى!

أما بيسان البنت الكبرى فقد أصابها الذعر.. وراحت تفكر في الحكاية التي حكتها الجدة عن تلك المرأة التي اعتلت العِلِيَّة وصرخت شاكرة الجواسيس والعملاء لأنهم باعوها كيلو الطحين بقلادة ذهبية؟

هل ستكون حكاية أمها هي الشرر الذي سيغير كل شيء؟

هل سيحمل والدها البارودة ويطلق النار على القناصة والخونة؟

هل القناص الذي يفتح فتحة في إحدى الجدر ويمسك في يده

منظارًا ويضع على وجهه جوربًا مخرومًا عند العين والأنف.. هل سيكون مجرد دمية مليئة بالقطن والقش؟

ومن الذي سيكتشف ذلك؟ وكم سيموت من أهل المخيم إلى أن يتم هذا الاكتشاف؟

وهل ستفقد أباها؟

هل سيختفي هو أيضًا ليلاحق القناصة والعملاء من مكان إلى آخر؟

## الصغير يحيى

مُتكوِمًّا في فراشه يرتجف من البرد.. يئن بصوت خفيض، تسمعه بيسان، تركض صوبه، ترفع الغطاء لتجده وقد بلّل نفسه، الأغطية، الفراش تبلّلا وكأنه أصابهما سيل!! يحاول أن يخلع ملابسه بسرعة، تساعده في خلعها، تلفه بغطاء دافئ ونظيف ريثما تسخّن له الماء.

تقتطع جزءًا من الخزانة الخشبية المتبقية لديهم، تخرج إلى حديقة المنزل الخلفية، تشعل القطعة الخشبية وتضع قدرًا صغيرًا على الماء، تبدأ النار في الاشتعال والتوهج رويدًا رويدًا، تجلس القُرفُصاء على حجر واللهيب يتطاول أمامها.. تختلس نظرات من بين ألسنة اللهب المتطايرة فترى جامع عبد القادر الحسيني وقد تكوّم على

بعضه كما يحيى الصغير متكومًا في فراشه. بدا الجامع من بعيد وكأنه خَرابة بعدما كان ملجأ لمئات العائلات التي نزحت إلى مخيم اليرموك باعتباره الأكثر أمنًا بعد اشتداد القصف على الأحياء المجاورة للمخيم.

الشمس مختبئة خلف الغيم، والسماء كالقطن الأبيض وكأن عاصفة ثلجية توشك أن تهُبّ، استدارت قليلًا وأعطت ظهرها للنار المشتعلة لترى دار محمود العنبر الذي ورِث المهنة عن أبيه .. تتلمظ وتبلع ريقها عندما يمر في خيالها العم محمود على عربته.. ينادي.. تفاح العنبر.. تفاح العنبر.. يلتمع التفاح الصغير المطلي بالألوان والسكر أمام عينها، تتمنى لو تحصُل على واحدة تعطيها للصغير يحيى لتُدخل الفرح على قلبه بعد غياب أمهما.

تلف وجهها إلى النار مرة أخرى، تحيطها بيديها لتحمي الشعلة بعدما هبت ريح باردة كادت تطفئها، تَعَضُّ شفتيها حتى يسيل الدم.. تذكر الدم الذي سال ولم يتوقف من جارتهم أم طارق يوم ولادتها لطفلها البكر فماتت الأم وهم يبحثون لها عن مشفى وطبيب دون جدوى.. ذهبوا بها إلى المقبرة وأحضروا الوليد ملفوفًا بقِماط أبيض اقتطعوه من كفن أمه الأبيض.. قطعة قماش واحدة لفوا بها الحي والميت.

أخذت الخالة الطفل الوليد.. لم تكن تعرف كيف تتدبر أمر إطعامه.. كان يبكي بكاء متواصلًا يقطع أمعاءه الجائعة. عندما اكتشفت الخالة وجود علب حليب في مخزن قريب سارعت إليهم.. أعطَوها علبة واحدة فقط.. علبة تكفي لمدة أسبوع على أبعد تقدير. لم يكن بإمكانهم أن يعطوها أكثر من ذلك لأنهم يريدون أن يغطوا احتياجات أطفال المخيم الآخرين..

نفد الحليب تمامًا.. وبدأت الخالة تسقيه شوربة بهارات، جسده كان يذبل يومًا بعد يوم.. لم يكن ينمو أبدًا.. كان لا يهدأ.. يبكي حتى تغور روحه ثم تعود.. كان من السهل عدّ عظام صدره وعموده الفِقري عظمة عظمة كما هو حال أطفال المخيم وشيوخه ونسائه، وفي ليلة ظل الطفل يبكي ويبكي بلا انقطاع حتى هدأت أنفاسه ونام.. لكنه لم يصحُ.

يغلي الماء، تبرّده قليلًا بماء بارد حتى يصبح محتمَلًا، تدخل إلى الغرفة، تغمس قطعة القماش بالماء لتنظف جسد الصغير بفوطة مبلولة من رائحة البول.. ينظر يحيى إلى بيسان، دموعه تتساقط بصمت بينما ترتسم على شفتيه ابتسامة حب لأخته التي تولت أمره بعد غياب الأم المفاجئ!

يخفِض رأسه قليلًا إلى الأرض، ثم يركض صوب بقايا الخزانة

ليأتي بالملابس النظيفة وكأنه يعتذر لها عما يسببه لها في كل صباح. عندما تنتهي من تنظيفه وغيار ملابسه.. يحك خده بخدها ويتمطى على حضنها ثم يحضنها طويلًا.

من النار المشتعلة كلَّ صباح يبتدئ نهار بيسان.. طَوال الشهور الستة الماضية ومنذ خرجت الأم خارج المخيم لشراء الطعام للأطفال وهي على هذه الحال.

في الخارج بدا المخيم خاويًا على عروشه، لم تكن تعلم بيسان أن الجوع يطيح بالإنسان أسفل سافلين، يدمّره، وفي لحظات يجعله يصاب بالجنون كجارتهم أم حسن التي ظلت تضرب طفلها الباكي من الجوع ولم تصحُ إلا وقد فارق الحياة.

لا حياة في المخيم.. الوجوه مصفرَّة، شاحبة، مشحبَرة، فأغلب العائلات الباقية كانت تستخدم الأحذية الجلدية للتدفئة.. لا أوراق على الشجر فقد أكلها الناس كلَّها.. المجاعة لم تبقِ ولم تذَر.. السماء جافة والشوارع عارية من كل شيء إلا من الرعب والقذائف التي لا تهدأ.

حصار المخيم يحمل كل التناقضات العجيبة.. من الناس من يؤْثِر على نفسه ولو كان به خَصاصة.. ومنهم من لو استطاع أن يقضِم قطعة من لحمك ما توانى عن ذلك.. هذا ما اكتشفته بيسان

عندما جاء رفيق والدها يركض والفرح يقفز من بين شفتيه.. يصرخ بأعلى صوته:

ـ خيا مؤيد.. .انزل بسرعة..

نزل مؤيد يجر أقدامه جرًّا فقد كان يسُفّ الملح لأيام ولم يذق الطعام من أسبوع.. كان وجهه مائلًا للسواد من صُوبية الحطب والبلاستيك..

رمى رفيقه في حِجره كيسًا وقال:

ـ الله رزقنا كاستين رز طابشين من غامض علمه..

قفز مؤيد من مكانه وصرخ:

ـ والله رديت لي الروح.. رح أدخل أطبخهن وأطعمي الولاد.

لكنه أوقفه قائلًا:

ـ خد نص الأرز والنص الباقي رح أشتري فيه جنة ربنا.. رح أشتري جنة بكيلو رز.. تخيل ما أرخص الجنة يا مؤيد.. هلاّ موسم تنزيلات.. غيرنا بيدفع ملايين وحج وعمرة علشان رضى ربنا.. ما في أحسن من هيك وقت لأضمن الجنة..

صمت مؤيد طويلا.. تـأمل رفيق صباه.. عصير العرقسوس والتمر هندي الذي كان يحضره في كل يوم في رمضان.. ضحكاتهم

ونكاتهم.. حُنُوّه ولهفته على مساعدة الضعفاء!!

كيف لم تتلاشَ إنسانيته وتضمحلَّ مع الحصار والحرب؟ كيف لم يتحول إلى آلة على شكل إنسان؟ كيف استطاع الاحتفاظ بفطرته النقية ولم يتوحش ولم تتشوّه نفسه؟

الحرب اختبار حقيقي للنفس الإنسانية.. تظهر فيها بلا تزويق ولا مكياج.. وهذا الاختبار تدخله بلا قرار منك.. أنت توضع فيه رغمًا عنك.. لكنك تستطيع أن تصنع قدَرك فيه كما تريد.

يرتجف صوت مؤيد وهو يقول لرفيقه:

ـ يلا روح بلا كثرة حكي.. خليني روح أطبخ الرز وأطعميه للولاد.. تركه ودخل لداخل البيت وهو يقبض على كيس الأرزمصدومًا والدموع تتشكل دوائر صغيرة لا يتركها تهطل بل يجففها بكُمه فورًا.. وأخذ يردد:

ـ الحمد لله أن هناك ربًّا سيكافئه على إحسانه..

ودخل مؤيد ليطبخ وما هي إلا ثواني وإذ بقذيفة تنزل بالشارع.!! سقط قلب مؤيد بين رجليه وركض للخارج وهو يصرخ:

راح الزلمة.. راح التقي النقي لعند ربه..

الغبار يملأ الشارع ويحجب كل شيء لكنه مع ذلك استطاع

أن يلمح رفيقه..

اقترب منه.. كان دمه حميمة[٢].. والأرز مازال في جيب بنطاله! الإصابة كانت في رأسه.. أمسك برأس رفيق عمره ووضعه في حجره.. تأمل جسده النحيل الطويل وأخذ يقرأ عليه القرآن ويردد:

– صدق الله فصدقه.. والله صدق الله فصدقه..

وفي خلال نصف ساعة كان رفيقه تحت التراب..

عاد مؤيد إلى البيت.. أخذ الأرز المنقوع ووزعه على مستحقيه وقال بصوت عالٍ سمعتْه بيسان وكاد قلبها ينفطر هلعًا على أبيها:

يا رب جنة ثانية لرفيقي وصديق عمري.. يا رب.. يا رب

## مفتاح الجنة بيد الجائع
## فإذا شبع أخذ المفتاح

بعد هذه الحادثة.. صارت بيسان تحب البقاء في البيت.. تحب العزلة.. لا تحب أن ترى الوجوه المعتمة المَشحبَرة والنظرات الزائغة.. لا تحب رؤية الجثث العالقة في الشوارع بينما القناص ينتظر من يسحبها حتى تزداد ذخيرته من المقنوصين..

---

(٢) دمه حميمة .

تضع كل ليلة في أذنها سدّادة حتى لا تسمع جارهم وهو يخلع حزامه الجلدي وينهال ضربًا على زوجته المسكينة.. فحينما يفقد الرجل رجولته وكيانه في الخارج .. يبرع في إظهارها على زوجته.

الجوع يتكثف ويتكثف ليكشف أسوأ ما في البشر وأحسن ما فيهم أيضًا.. الجوع خائن.. نعم إنه يخون الجسد ويخذله.. وقد يكون مفتاح الجنة بيد الجائع فإذا شبع أُخذ المفتاح ..

الجوع يهذب النفس، ينقيها ويطهرها من الأدران.. وفي لحظات أخرى قد يسجن الجوع الجسد ويعذبه ويسلب حريته.. فإن كنت جائعًا فلا يعنيك شيء في الكون قدر جوعك..

وسبحان الله ما أرحمه؛ فقد أخفى المعدة في مكان بعيد عن الأعين حتى لا يرى أحد ذل جوعك ولا يشعرَ أحد بأن جسدك بدأ يأكل نفسه.. الإنسان لا ينتهي بالموت.. إن إنسانية الإنسان قد تنتهي بالجوع !!

ترهقك معدتك، تقرصك قرصات مميتة تلتف حول نفسها وتعصر ذاتها وتأكل خلاياها ..

تتمدد لعل النوم الذي يجافيك يقترب ويرحم.. حينها تخرج معدتك من جسدك.. يتلبط قلبك كما تتلبط سمكة أخرجوها لتوِّها من الماء.. ترقبك معدتك من بعيد.. تتجول حولك تبحث عن

فتات هنا وهناك.. رأسك يكاد يقع بين يديك.. تشعر بأن روحك تخرج من سَم الخياط نُتَفًا متتالية ..

الجوع يغوص في الروح قبل الجسد.. كل ما تخافه أن تنحني روحك.. لذلك عندما تجوع فإنك تختبئ.. حتى تتألم وحدك.. أو تموت وحدك..

ذات يوم بارد جاء أسامة لبيسان راكضًا.. همس في أذن أخته التي تكبره بثلاث سنوات:

ـ في بيت جارنا أبو العبد كيلو رز.. سمعت أنه بدو يبيعه!

خرجا مسرعَيْن.. اشتريا نصف كيلو أرز يعلوه السوس وتملأه الحشرات، لفَّت بيسان الأرز بكيس أسود حتى لا يلمحه أحد ووضعته في كُمِّها ورجعا إلى البيت مسرعَيْ ن وأشعلت النار ووضعت عليه الكثير من الماء والقليل من البهارات وجلس الأطفال الأربع وجدَّتُهم مهجة وأبوهم.. كثيرًا ما كانت الجَدَّة والأب يوهمون الأطفال بأنهم يأكلون ولكنهم لا يفعلون.

تبتسم بيسان وتضحك ضحكة هستيرية عندما تجد نبتة (رجل العصفورة) ثم لا تلبث أن تبكي بعدما يحذرها أخوها أسامة من النبتة قائلا:

ـ هذا النوع سام يا بيسان حتى أن وزارة الزراعة كانت تحذر

المزارعين من أن تأكل مواشيهم هذه النبتة لأنها ستسمم الحليب والجبنة واللحم الناشئ عنها..

بعد ذلك أصبحت بيسان قادرة على التمييز بين النوع السام وغير السام، وبعد ذلك اختفت النبتة من الأرض تمامًا وصارت تُباع بمبالغ خياليةٍ من بعض التجار الذين استغلوا الوضع.

ولحُسن حظهم كانوا يستطيعون شراء كمشة أرز من هنا ونبتة رجل العصفورة من هناك.. لكن بعد فترة وجيزة نفد كل شيء.

صار الناس يقطعون الصَّبّار، يقشرونه، يقطعونه، يسلقونه ويأكلونه.. لكن بيسان وإخوتَها الصغارَ لم يستطيعوا استساغة الطعم..

حينها نزلت بيسان وقطفت ورق شجر الزيتون من الحديقة الخلفية لبيتهم .. حمَّسته على النار وطحنته وأضافته إلى الماء مع قليل من الملح والبهارات.. لكنها لم تستطع بلع ملعقة واحدة!! فقد كان طعمه لاذعًا وأمرّ من الصّبر.

ذات صباح أيقظت بيسان أخويها أسامة وعز الدين باكرًا قبل أن يصحوَ الجميع .. قطعوا شارع لوبيا جيئة وذهابًا.. هذا الشارع الذي كان يكتظ بالمطاعم والأكل مما لذَّ وطاب.. غدا الآن شارعَ أشباح.. عرَّجوا على البستان الكبير.. بستان أبي علي الذي كانت

أمهم تشتري منه الخضار والفواكه، وكان يوزع الحليب يوم الجمعة مجانًا على الناس.. لكن الجنة تحولت إلى أرض محروقة ليس فيها شجر ولا بشر .. فالبستان احترق تمامًا ويبدو أن صاحبه رحل كما رحل الكثيرون بعد مجزرة مسجد عبد القادر الحسيني.

في الليل تمسك بيسان بصورة أمها، تضع يحيى في حجرها، تذكّره بأمّه حتى لا ينساها، عندما ينظر إليها يستحيي ويخجل ويضع رأسه في الأرض.

ـ «ديري بالك..» هذه آخر كلمة نطقتها أمها قبل الخروج الأخير .. ديري بالك تظل ترنّ في أذن بيسان..

تراقب أمها وهي تجلس في كل ليلة على مكتبها.. تكتب مقالًا من مقالاتها اليومية التي تنشرها في صحيفة يومية كبرى ..

تجلس على كرسي قُبالتَها ريثما تنتهي.. وعندما تنتهي من كتابة مقالها اليومي كانت لابد أن تعرضه على بيسان لتدلي برأيها.. في العنوان.. أو في طريقة معالجة الموضوع.. أو حتى في صياغة بعض العبارات..

لم تكن قد جاوزت الثامنة عشر من عمرها.. لكنها كانت قادرة على النقد والنظر الثاقب في النصوص وتذوقها..

«عندما يشتد الموج.. اجعل قلمك هو الشراع.. حينها ستصل لمبتغاك»

أمسكت بيسان قلمها وقالت سأجعل قلمي الشراع.. سأكتب لأرتاح، وكتبت:

أتعرفين يا أمي، لقد تغيرتُ كثيرًا في غيابك.. لم أعُد أجد لنفسي وقتًا.. أبحث عن الطعام طَوال النهار ولا أجده.. أنظف البيت.. أعتني بيحيى.. أبدو قوية أمام إخوتي وأبي .. أزيح دمعتي بطرف إصبعي وأكمل نهاري بشكل اعتيادي.. دمعتي هي التي تنبهني أنني ما زلت على قيد الحياة!!

ألا تريدين العودة إلى البيت؟ أريد أن أحكي لك عن مغامراتي وماذا يحصل معي وما يعتمر في قلبي وما يخطر في بالي..

أقصى أمنياتي.. لقمة تمنحني عمرًا إضافيًا لعلني أراكِ.. لم أعُد أخاف الركام ولا صوت البراميل والانفجارات وهي تسقط على البيوت.. بِتُّ أخاف صوت عظامي وهي تطقطق .. أخاف شكل عظامي البارزة من تحت الثياب.. لا أقف على المرآة أبدًا.. لقد صرت لوحة صامتة مليئة بالشقوق والندوب والألوان الباهتة.. لا أحب اليقظة يا أمي.. والنوم ملاذ!

لكن وسط هذا الركام والسواد والصمت.. بدأتُ أعود تدريجيًا للحياة.. أحب الصحو مبكرًا.. أحمل وعمتي شادية قنديلًا! أقصد سطلًا رخيصًا للدهان وبخاخات لنمنح عمرًا جديدًا

لشهداء اليرموك.. لم أكن أعرف أني أتقن الرسم.. لكن الحرب تعلمك ما لم تكن تعلم.. تنبش داخلك لترى المُذهِل، الحرب تتكفل باستخراج المستحيل من داخلك، تعلمك ألا تتعلق وألا تأخذ، تجد ذاتك التي لا تعرفها.

السويعات التي نقضيها نرسم ظلّ شهيد أو أسير أو مختفٍ قسريًا على جدار منزله ونكتب عبارة كان يرددها دومًا حتى أصبحت لازمة له.. هذه الساعات كفيلة بإعادة تركيب ما تناثر من روحي.. إنها تهبُني النور والحبور، هؤلاء الشهداء هم وَهِجُ المخيم وطريقه للانتصار على العَتمة، ما فُتنوا.. ما همَّهم ظمأ ولا نصَب.. أسمع حكاياهم وأغبطهم، أتتبع آثارهم وكلماتهم وخطاهم.. فأكتشف وعورة الطريق وجمال الختام..

الشهادة هي نهاية الوجع .. وجائزة الله للمكروبين..

قد تسألينني كيف خطرت الفكرة على بالكم؟

باغتتني الفكرة في يوم الأسير الفلسطيني ١٧/ ٤.. أردنا أن يضِج المخيم بأصوات الشهداء من جديد.. من قضَوا تحت التعذيب، من قضَوا جوعًا.. أو برصاصة قناص.. من أشعلوا الفتيلة رغم اشتداد العتمة فقدموا مساعداتٍ إنسانيةً وإغاثيةً. وانضمت عمتي شادية لي بعد تأكدها من استشهاد زوجها.. لقد

أحبت أن تكمِل طريقه.. قد لا تتقن الرسم مثله.. لكنها أرادت السير على دربه..

فاض المخيم بالصور والعبارات يا أمي.. لقد بُعثوا من جديد، حَلُّوا القيود التي قيدهم بها الجلاد.. انبثقوا من الجوع والسجون .. كشفوا عورات الصامتين والمتواطئين.. لقد تزلزل المخيم يا أمي!

شهداء الجوع يتزايدون يومًا بعد يوم.. في كل يوم نعد العشرات..، أنام وأستيقظ على النهايات، ينطفئون واحدًا تلو الآخر، مغسلة الموتى لا تغلق أبوابها أبدًا، تبتلع كل يوم المزيد والمزيد، بلا أنين ولا بكاء ولا عويل، يدخلون ويخرجون وكأن المشيّعون يحسدونهم على الرحيل السريع.

عندما زاد عدد الشهداء في ذكرى يوم الأسير الفلسطيني ولدت الفكرة.. رسمتُ إلى الآن ما يزيد عن ثلاثين ظلّ وأمامي أكثر من ٢٠٠٠ شهيد في المخيم يجب أن نرسم ظلالهم.. أفكر هل ستتسع جدران المخيم لهذه الأعداد؟ هل ستحتمل جدران المخيم هذه النجوم التي محَلها السماء؟

كان أكثر ما يدهشني تلك الجمل التي كانوا يشتهرون بها.

رسمنا ظل الشهيد علاء وكتبنا اللازمة التي كان يرددها «أهم شي النية»

كتبنا الكثير من العبارات..

«كنا لاجئين.. صرنا مقاتلين»

«عندما قررت أن أعشق.. عشقت المخيم»

«شو كِنك نسيت»

أمامَنا الكثير من الرسم.. العداد مازال يرتفع يا أمي.. والموت كالنار كلما ألقمتها جثة ازددات اشتعالًا ورغبة وقالت هل من مزيد!!

الأهالي يتواصلون معنا..

تعالَي يا بيسان ارسمي ابننا.. أركض من بيت لبيت ومن حارة لحارة.. أذهب لبيت بسام حميدي وخالد البكراوي وإياس النعيمي.. وكلما عرفتُ شهيدًا عرجْت إلى النوروسُقيت الروح..

****

كل هذه الحكايا مخبئة.. لن أبوح بها لأحد سواك.. أشتاق لك.. لكلمة ماما.. منذ زمن لم أنادِ بهذه الكلمة.. أشتاق أن أناديك بها..

في الليل أتمدد بجانب ستي مهجة.. وحولي إخوتي أسامة وعز ويحيى.. تقص علينا قصص البلاد والاحتلال.. تغني أحيانًا

«يارب تشتي شعيرية.. وتجيب لي طبريا على سوريا»

أستمع لقصص أسامة وعز وبابا.. لكن لا أجد من أحكي له قصصي.. فأُهرَع إلى مكتبك وأكتب وأكتب..

لم أكن أحتاج لصديقة أبوح لها بمكنونات نفسي.. كنتُ أعود إلى البيت وأكُرّ لك كل الحكايات كما تكُرّ المسبحة حباتها.. كنتُ أقفز من حكاية لأخرى.. لا أنهي حكاية بدأتها أبدًا.. كنتِ تتحملين ذلك بل وأحيانًا تكونين متحمِّسة لكل كلمة أقولها.. وأحيانًا تقولين لي:

ـ ركزي على قصة وحدة يا بيسان.

وعندما كبرتُ قليلًا أصبحت أرتب قصصي في رأسي، أحبُكها جيدًا متسلسلة، مرتبة، ثم أدخل مسرعة إلى البيت وأحكي وأحكي..

صرت أشبهك كثيرًا.. في نبرة صوتي.. في الحركات والالتفاتات والإيماءات.. في نظرة العين وفي زاوية إمساك القلم والجلوس على المكتب لساعات حتى تنضِج الكلمات..

في كل مرة أمسك القلم أغدو أقوى، وأستطيع أن أقف وأحارب من جديد.. كل يوم هو محاولة لكسب المعركة.. مع القلم أستطيع أن أستأنف المسير بلا نحيب ولا انطفاء.. أتزود

بالصبر المملّح.. أُلقم الذُّبالة التي في الرمق الأخير زيتًا من كلماتي فتعود للحياة من جديد.

أقرأ القرآن كل يوم كما أوصيتِني..

أردد كلماتك عندما أتقاعس:

«القرآن غيث يبلل الأمنيات.. القرآن حبل نجاة.. سينقذك عندما لا تجدين أحدًا حولك..

سيأتي عليك وقت يكون القرآن هو العاصم الذي يعصمك من الغرق عندما يفور التنور.. لا أريدكِ أن تقرئي القرآن إرضاءً لي.. ففي القرآن تباشير ولادة جديدة.. لن تمسها التجاعيد مهما تقادم العمر.. تقرئين فتنعتقين من وجع وضعف.. تتأملين آية بصمت فتحلق روحك وتعزف لحنًا لم تتدربي عليه من قبلُ، لكنك تتقنينه في لحظة، وهذا سر من أسرار القرآن.

كل آية هي متكأ ومفتاح.. يفتح نوافذ القلب ويجعلها مشرَعة على الرضا والسكينة فينبت في رحم الضيق ألف ألف فرج.

القرآن يا بيسان يغسل درن روحك.. يرش على ذبولك ماء الحياة فلا انكسار ولا انحناء ولا سقوط ولا جفاف..

بين سطوره سترين نفسك.. سترمِّمين روحك.. ستلتمع عينك بالحقائق.. فلا وهم ولا شباك واهية ولا أسلاك شائكة..

هو قنديلك عندما تُطفأ كل القناديل حولك.. هو مؤنسك عندما يعز الأنيس.. هو مرساتك في الموج الصاخب.. يكفيك منه «اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ» لتشعري بالقوة وتغتسلي من الهزيمة.

قد تكون الظلمة في الخارج هي الطاغية.. لكنْ وحدَه القرآنُ يجعل الضوء في قلبك يسطع.. وحده القرآن يجعل الوَحدة والعزلة ضجيجًا وحركة وألوانًا لا تفتر.. وحده القرآن يعينك على إكمال الطريق حتى لو كنتِ وحدك فمعه تصبحين أمَّة.»

لم أشعر بهذه الكلمات يا أمي.. لم أتذوق طعمها إلا في يوم خروجك من المخيم وبعدما سمعت خبر إغلاقه تمامًا..

عندما أعلنوا إغلاق المخيم تمامًا ومنعوا الدخول والخروج منه، في تلك اللحظة علا الصُّراخ والعويل وحدثت حالات إغماء وإرباك وفزع وصراخ وعمّ الناسَ كربٌ شديدٌ.

بالنسبة لي كانت هذه اللحظة لحظة ثبات ويقين كما رسمتِها لنا تمامًا.. لا عِبء فيها ولا خوف ولا هلع.. في هذه اللحظة خرج الأجمل الذي لم نكن نعرف أننا نملكه.. في هذه اللحظة أدركت عظمة القرآن لأول مرة، وانسابت آيات الصبر والسكينة بسلاسة على لساني، وكانت دَيمةً بللت نار لوعتي وحلقت مع ربي ووقفت على أسواره.. في تلك اللحظة شعرت لك بالامتنان لأنك؛ عودتِني

وإخوتي ألا نتعلق بك.. فنورك قد يخفت أما نور الله فهو الباقي.

**ابنتك المشتاقة بيسان**

## العيون موطن الشوق وموطن الحزن

اليوم مضى على غيابكِ ستة أشهر..

ستة أشهر لم أركِ.. لم أحكِ معك.. لم أحضنْك.. لم أسمعْ «الله يرضى عليك».

يحيى لا ينام إلا عندما أكون معه.. يتبوَّل على نفسه لا إراديًّا.. أحيانًا تصيبه نوبات من الصراخ والبكاء دون سبب وأحيانًا يهيج فيكسر الصحون ويرمي الملاعق والسكاكين.. ولا يهدأ إلا عندما يرى صورتك حينها يهدأ ويستكين وتتحول نوبات الصراخ والحزن إلى ابتسامة خجولة، يطأطئ رأسه، يضع إصبعه على عينيك وفمك، يتلمس صورتك ويردد وهو يقفز ماما ماما.. أعرف أنه مصدوم.. مصدوم من غيابك ومن أصوات البراميل المتفجرة والقذائف..

أحيانًا كثيرة أخاف من تعلق يحيى بي.. وأقول لنفسي.. لابد أن أدرِّبه على غيابي كما كنتِ تفعلين معي ومع إخوتي أسامة وعز.. كنتِ تقولين:

«الحياة لا تنتهي بغيابي.. يجب أن تعتادوا على الحياة معي وبدوني.. كنتِ تختصرين ذلك بكلمة واحدة:

إن غبت فالله لا يغيب.»

افتقدتك اليوم كثيرًا عند دار سيدي.. الجو كان كئيبًا دونك.. الكل يحدِّق بي ويركِّز على عينَيَّ وأنا أتكلم، وكأنهم عرفوا أن العيون موطن الشوق وموطن الحزن.. استغربوا قدرتي على إدارة البيت في غيابك ولم يعرفوا أنك سراجي!

خالي حمزة استطاع الدخول للمخيم مع الصليب الأحمر مع أنه لم يبقَ على تخرجه من كلية الطب سوى شهرين.. أصرّ أن يدخل ويقدم العون لأهل المخيم مهما كلفه الثمن..

لقد فتح بيته الصغير كعيادة لكل الجرحى والمرضى بعد أن ينتهي من عمله في مستشفى فلسطين.. وجهُه كان أصفرَ شاحبًا وهزيلًا.. .يبدو أنه لم ينم منذ وقت طويل..

ونحن هناك جاؤوا بشاب يبدو أن وضعه حرِج جدًّا.. ستي صرخت وقالت:

ـ مصارينو طالعه لبرا ما في فايدة!!

لكنه حمله للمشفى وأصرّ على عمل ما يلزم..

دخل غرفة العمليات الساعة الرابعة عصرًا ولم يعد إلا في

صباح اليوم التالي!!

سألته ستي عن الشب.. قال لها استُشهد!

ـ قالت له:

كنت متوقعة.. بس يلي ما كنت متوقعته إنك ما تعرف إنه هي النهاية ..

قال لها:

ـ استأصلنا الكَبِد والبنكرياس والطِّحال والكُلْية.. كنت متوقعًا استشهادَه لكن حتى أقدم عذري أمام الله.

اليوم أحببت خالو حمزة أكثر من أي وقت مضى وعرضت عليه أن أساعده بما يريد..

****

أشعر أنني أصحو كل يوم لأقاتل.. أقاتل حتى لا تبتلع العَتمة بصيص النور المتبقي.. أقاتل حتى لا أسقط.. أعلم أنك ستقولين «في كل سقوط الله يسندنا» وأعرف أن أجمل ما في السقوط أننا نسقط لنتعلم الثبات..

في كل مساء أتعلم الانتصار من جديد.. أذهب إلى غرفة مكتبك.. أنبش أوراقك وقصاصاتك المنثورة هنا وهناك.. أسمعك تقولين:

ـ أغلقي الباب عليّ.. لا تفتحيه حتى وإن جاء الوزير! أضحك

وأنا أنبُش أوراقك وأشُم رائحتك العالقة بالكتب.. سقطت بعض الكتب على الأرض.. صادف ذلك مرورَ أبي.. نظر إلي فوجدني أجلس على مكتبك وأقرأ قصاصاتك.. تمعَّنت جيدًا في الكلمات وجدت وجه أبي يُطِل بين السطور.. قال لي:

ـ انتظري.. لا تقرئي شيئًا.. سأجهز فنجان قهوة ونشربه بصحبة أمك.. نسيت أن أخبرك.. لقد نفد كل شيء، الخبز الذي جففته.. الزيتون والجبنة البيضاء ولم يبق إلا القهوة.

يعود أبي بثلاثة فناجين قهوة.. لي وله ولك!!

أمسك بورقة من أوراقك وقد كتبتِها بخط يدك كما كنت تفعلين دومًا.. تكتبين بخط يدك ثم تطبعين ما تكتبين.. لذا فقد بدت الحروف دافئة ونابضة.. أقفز على الكلمات تحت ضَوء الشمعة.. بين هذه الحروف اكتشفت ماذا يعني لك أبي.. أبي هو من يحمي شعلتك بكلتا يديه.. هو من يرعى خطوط النور في كفيك..

سحرتني كلماتك يا أمي.. كلماتك التي لم أنتبه لها في قراءتي الأولى معك.. وكأن الكلمات صار لها رنين مختلف الآن..

«لا معركة يمكننا أن نكسبها مادامت المرأة تشعر بالخيبة والخضوع ولا حرية يمكننا أن نكسبها ما لم يرعَ الرجل خطوط

النور في كفها. »

وكنتِ تعرفين مدى قوتك ..

«قد تذبل الأوطان ولايبعثها من مرقدها سوى كف امرأة تحترف المقاومة كما تحترف الأمومة »

كنتِ على يقين بأن فلسطين هي الميزان.. نعم يا أمي عندما اختل ميزانها فقدنا كل شيء..

فلسطين هي الميزان.. إن اختلّ.

سيفقد الزيتون خُضْرته والنخيل قامته..

ستنحني الألف الثائرة..

ستُكشف السوءات

وتُسكب جرار الذل في الطرقات.. وتكون العتمة هي العنوان»

وكنتِ على يقين بأن لامعركة سوى معركة القدس ..

«عندما تعتم فتكن القدس قنديلك ..وعندما تتعدد المعارك ويضطرب اليقين فلتكن القدس ميزانك ومعركتك »

كنتِ ترسمين بحروفك شكل صلاة الفتح..

«لا تنتظر صلاة الفتح يا بني..

لا ترسمها على الورق..

دع أقدامك ترسم الخطى..

كن أنت التكبيرة الأولى والخطوة الأولى»

كنتِ على يقين بالعودة فكتبتِ

«سننشق سِراعًا من قبور المنافي..

سنُبعَث من قهر التهجير

كل منا سيتبع عِطر مدينته وحكايا جدته..

سيهتز له زهر الجنة ويخضر حُلم العودة»

وكنتِ تغزلين النصر بخيوط من يقين..

«يتدفق النصر دافئًا.. في اللحظة التي ينضج فيها اليقين ويهدأ ارتعاش الشك في الأهداب»

«النصر ليس رجلًا.. إنه امرأة تروي الحكاية وترسم الخريطة فينشق البحر ليعبر الثوار»

وكنتِ تكرهين الصمت والصامتين.. فتكتبين

«الصمت شِرك وبيع الأرض كفر..

أيها البائعون.. سيروا بحذر في شوارع التيه.. فالطوفان قادم ولن يعصمكم من الله عاصم»

أبي يمارس نفس الطقوس التي كنتما تمارسانها يوميًا.. يصحو ويذهب لمكتبك.. أسمعه يحكي لكِ أخبارنا.. الكتب الحديثة التي قرأها.. آراءه في بعض الكتب.. ما الذي راق له.. الأفكار الجديدة التي خرج بها.. يسألكِ يستمع لإجاباتك.. يناديك: «زهرتي الخزامى»..

يُشعرنا دومًا أنك معنا.. حتى عندما نريد أن نأخذ قرارًا معينًا نذهب إلى مكتبك ويقول:

ـ هيا نستشير أمكم.

يردد بعض كلماتك.. تضاعف حبه لك في الغياب أم هكذا أتخيل!! أحيانًا أخاف عليه من الجنون.. لكنني اكتشفت أن هذه طريقته لحماية نفسه وحمايتنا من الجنون.. فهمت أن الحيلة ستتكفل باحتمال الحياة دونك.. لقد تخطى الأزمة التي مرّ بها فور غيابك بأن واصل الحياة وكأنك معه.. عالج الأمر.. إنه يعيش معك فعلًا في كل لحظاته.. مع أنه فقدك وسط الطريق.. إلا أنه يصر أن يكمل الطريق معك.. كان يراك حيث لا نرى.. ويسمعك حيث لا نسمع.

غيابك كان صعبًا!! خاصة وأنه لا يعرف مصيرك!!

هل اعتقلوك وعذبوك؟

لماذا اعتقلوك؟

هل بسبب مقالاتك؟ هل ما زالوا يريدون كسر قلمك ونثر حبرك؟ هل نجوت منهم واختبأت عند أحد أقاربنا؟

إن فعلت ذلك.. لماذا لا تتصلين وتطمئنينا؟!!

طوال الوقت كان خائفًا عليك ومشفق على ما ستعانيه من الأهوال وحدك.. ومشفق على نفسه من الفراق..

***

عرفتُ لاحقًا الكثير من قصص النساء في المخيم..

إحداهن كانت ترسم وتخبئ لوحاتها في مخزن سفلي حتى لا يكتشف زوجها جريمتها!! وعندما اكتشف ذات مرة الألوان التي في جعبتها لطخ بها وجهها وجعلها أضحوكة لنساء الحي!

وأخرى ضربها زوجها ضربًا مبرِحًا ومزق النسخ التي وصلتها من مجموعتها القصصية الوحيدة التي صدرت للتو.. بل وأشعل النار في مُزَق الكتب.

هذا الترف.. المسمى كتابة.. لم يكن يسمح لنساء المخيم به..

أما أبي فكان رجلًا مختلفًا.. كان يخاف أن تتوقفي في يوم ما.. أن تيأسي وتلقي بالقلم جانبًا.. أن تفقدي إيمانك بجدوى الحروف

والكلمات.. لطالما أيقن أبي أن كلماتك التي أودعتِها الأوراق ستغدو يومًا أرواحًا تقاتل وتمسح صدأ السنين وتنير الدرب للثائرين.

لطالما أيقن أبي بقدرة الكلمات على التحليق والطيران.. كان يرى ذلك في الثورة التي اندلعت..

كان يعرف أن الثورة قادمة لا محالة، ولكنه كان يعرف حجم الفزع والقهر والألم والقمع والتعذيب الذي يعيشه الشعب السوري.. .. خاصة وأنه عايش أحداث سنة ١٩٨٢

لكنه لم يكن يتوقع أن تُولد الثورة بهذه السرعة!!

كان يعلم تمامًا أن للكلمة روحًا.. ولأنهم يدركون أن القلم رصاص ولهب.. حاولوا ليّ عنقك وكسر قلمك.

كان أبي يفخر بأنك في حالة حرب مستمرة.. حرب مع الطاغية والدكتاتور.. حرب مع الاحتلال.. حرب مع الفصائل المتناحرة.. حرب مع المخيم وقيوده.. وكان يعلم أن القلم هو انتصارك الكبير والوحيد في زمن الهزائم المتتالية..

بقلمك انتصرتِ على الطغاة.. صنعتِ لهم فخاخًا ومصائد فانكشفت سوءاتهم؛ لذلك كان على يقين بأنك خلف قضبانهم.

# أن تفكر كشجرة مقلوعة

بعد شهر سيكمل إبراهيم عشر سنوات من الاختفاء القسري!!

لم يُعتقل إبراهيم وحده.. اعتقل معه صديقه حيدر الذي كان عسكريًا وهرب من الجيش.. أمسكوه لسنوات عدة.. ثم خرج في وقت الحصار أما إبراهيم فلم يعد!

كيف حدث هذا؟

لا أحد يعرف.. لكن مهجة تخمِّن أن ذلك حدث بسبب أشعاره..

لم تلتق مهجةُ بأحد من الشعراء الكبار أمثال محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد ومعين بسيسو وفدوى طوقان وإبراهيم طوقان الذي أسمت ابنها على اسمه ..وغيرهم من شعراء فلسطين الذين تقرأ لهم بنهم وشغف، كانت تتابع ما يكتبون في الصحف والمجلات.. وتدوّن ما يعجبها في دفتر صغير وتحفظ بعض الأشعار وتتغنى بها.. كانت هذه الأشعار تعيدها بلطف إلى حضنها الأول.. ووطنها الأول ..ّ كانت تقرأ بالساعات قصص غسان كنفاني وروايات جبرا إبراهيم جبرا وسميح شقير ويحيى يخلف..

الآن لا تذكر أحداث أي رواية ولا قصة قرأتها.. لم يعلق في ذهنها سوى جملٍ ومقاطعَ معينةٍ، أما الأبيات الشعرية فترددها وكأن الدوواين أمامها.. يشرق وجهها ويلتمع وهي تستذكر جملة غسان كنفاني:

«الغزلان تحب أن تموت عند أهلها.. الصقور لا يهمها أين تموت»

وكان ابنها إبراهيم يردد مقطعًا من مقاطع غسان:

«إذا كنا مدافعين فاشلين عن القضية فالأجدر بنا أن نغير المدافعين.. لا أن نغير القضية»

اثنان من الأبناء الأربعة صارا يشبهان أمها (مؤيد وإبراهيم). هما اللذان رقصا على وتر الكلمات وابتلا بسحر اللغة وركعا عند عرشها وآمنا بقوتها.. اثنان هما اللذان تضرجا بحب القصائد لأن لها لونًا واحدًا هو الوطن!

في البدء كان إبراهيم يكتب ليدخل السرور إلى قلب أمه وحتى تفخر به أمام نسوة المخيم.. ثم بعد ذلك صارت الكتابة دوءاه.. صارت الكتابة ملجأه فلا أكثر حنانًا من الورق.. ولا أدفأ من الحبر!

كانت مهجةُ تصعد إلى غرفته أحيانًا، تزوره عندما تطول

عزلته، أحيانًا كان يقول لها:

إنه لا يفهم ماذا يحدث! لا يجد تفسيرًا منطقيًا للوقائع! أحيانًا تصبح المعاني شائكة ومؤلمة.. تستعصي الألفاظ والمفردات، لا تعطيه نفسها ولا تكشف سترها!

تقاطعه:

ـ ابقَ في حالة قراءة وتأمل إلى أن يصبح المعنى طيِّعًا بين يديك..

تصعد هذه الليلة إلى غرفته.. تمسح نظارته الطبية التي لم يسعفه الوقت ليلبسها حين مداهمتهم للبيت واعتقاله فجأة في قلب الليل.. ساعته كما تركها على الطاولة قرب السرير، على طاولة المكتب مئات الصحف والمجلات، وعلى الأرض الكثير من الروايات ودووين الشعر، بيجامته ملقاة على السرير تنتظره بشوق وصبر!

ذات مرة صعِدت عنده فوجدت العديد من ملابسه وهو صغير.. ملابس بمقاسات عديدة.. تذكر أنها كانت دومًا أكبر أو أصغر من حجمه فقد كانوا يحصلون عليها من المعونات.. وتذكر أنه كان يرفض التخلص منها أو إعطاءها لأي كان!!

وجدتْ أيضًا جلد الماعز الذي كانت جدته تجلسه عليه.. وأكياس الطحين وصابون الوكالة الذي يقرَح يديه.. كل ذلك كان

مجموعًا في صندوق.. ذُهلت أمه عندما رأت هذه المقتنيات، وعندما رأى الدهشة ترتسم في عينيها قال:

- هكذا أستطيع أن أكتب؛ فهذه الأشياء تذكرني دومًا بأني مازلت لاجئًا.. لاجئًا مذ كنت في ظهر أبي.. وسأورِّث اللجوء لأطفالي وأحفادي بكل بساطة لمجرد أن أنسى!!

عشر سنوات مضت والعائلة لم تترك أحدًا من قريب ولا بعيد إلا وسألت عن ابنها الغائب، كانت ليلى جنينًا في بطن أمها عندما اعتُقل أبوها العريس الذي لم يمض على زواجه ستة أشهر، كبرت ليلى وبدأت تسأل أعمامها وجدتها وأمها، كانوا يصمتون جميعًا، في الحقيقة العائلة لم تكن تعرف مصير ابنها وعندما ذهبوا وسألوا عنه لدى الجهات الأمنية عاملوهم كحشرات وكلاب ضالة، ثم هددوهم بالسجن والإخفاء إن هم حاولوا السؤال مرة ثانية.

تتوهج الآن التماعة في ذاكرة مهجة.. تضحك ضَحكة مفاجئة حينما تتذكر تندر أولادها بقسوتها خاصة بعد وفاة زوجها عبدالكريم!! نعم كانت قاسية وصارمة مع أولادها.. فأنشأتهم على الخشونة والصلابة.. كانت تحب أن تقحِمهم في كل أمر شديد وذي بأس.... تحب أن تقحمهم في كل خطر ، لم تكن تلك القسوة والخشونة إلا طريقها للتربية وكانت تحفظ بيت شعر قالته صفية -

رضي الله عنها- عندما كانت تضرب ابنها الزبير بن العوام فلاموها على ضربه وقالوا:

إنك تضربينه ضرب مبغضة لاضرب أم .. فردت:

لا والله..

من قال قد أبغضته فقد كذب.. وإنما أضربه لكي يَلِبْ ويهزم الجيش ويأتي بالسلَب..

وهي تربيهم ليهزموا الاحتلال.. فأن تكون فلسطينيًّا ابن مخيم فهذا يجعلك مختلفًا عن الآخرين.. يجب أن تكون الأصلب والأقوى والأكثر ذكاء وعلمًا ..أن تكون لبيبًا ، عاقلًا ..حتى تستطيع أن تتطاول بين الأغراب وتزاحم..

في صغرهم كانوا يكرهون المخيم.. كانوا يشعرون أنفسهم كنبتة جافة مشققة.. كعود يابس ملقى على قارعة الطريق وأنّى له أن يحيا في غير ترابه!

لكنهم ماعرفوا أن هذه القسوة هي طريقهم للعودة..

كانوا يفكرون كثيرًا كشجرة مقلوعة.. أيمدون عروقهم في أرض لا تعرفهم أم يبقون في العراء بعروق مكشوفة؟!!

هذه القسوة والصرامة ظلت عنوانًا للأم اللاجئة إلى أن حانت لحظة اعتقال إبراهيم. في تلك اللحظة ذابت المرأة الحديدية

وصارت هشة ورقيقة وشفافة كزجاجة ..وبكت مرتعشة لأول مرة في حياتها أمام أولادها وهي التي لم تبكِ قط أمامهم !!

إبراهيم كان مختلفًا في كل شيء.. كان أبوه يفخَر باستطاعته حفظ ما يزيد عن مئتَي كلمة إنجليزية وهو في عمر السنتين.. وقبل أن يبلغ السادسة من عمره كان يجيد القراءة بطلاقة، وكان الأب ينادي عليه في تجمعات العائلة والأصدقاء ويجعله يقرأ أمام الجميع مفتخرًا بعبقرية طفله ونبوغه..

كان في هذا العمر يستمع لأحاديث الرجال وتحليلاتهم السياسية للأوضاع وحال المخيم ومشكلاته.. وعندما كبُر قليلًا وعَى أن المخيم هو فلسطين المصغَّرة.. فلسطين الضاجة بالهتافات والمسيرات وجنازات الشهداء.. بالشعارات التي تملأ جدرانه.. بمقبرة الشهداء التي تتسع يومًا بعد يوم.. عرف إبراهيم أن المخيم هو خيانة الأنظمة العربية، هو الثمن لعروشهم الثابتة.. هو التيه الجديد.. هو حضور وسيادة الاحتلال وصمت وقهر الشعوب.

***

في هذه الليلة شديدة البرودة وبينما كانت الأمعاء الخاوية تتلوى وتأكل نفسها.. تعجبت مهجة من بقائها على قيد الحياة إلى الآن.. تتعجب من قسوتها على أطفالها.. تتذكر عبارة غسان كنفاني

«شراستك كلها إنما هي لإخفاء قلب هش».

تلك الفتاة الهشة التي أرغموها على الزواج في سن مبكرة.. ثم جاءت النكبة لتخلصها من ذلك الزواج.. ثم في طريق التهجير والترحيل يعشقها تاجر شاب كريم ويتزوجها وتنجب منه ثلاثة صبية وفتاة.

زلزال النكبة أنقذها !! به خرجت من قعر الحفرة..

يا ترى ما الذي حدث وكيف؟

كيف لشاب وسيم أبيض مشرئب بحمرة لو وكزته بدبوس في وجهه لتدفق الدم منه، تاجر كبير في أهله، مقدام كريم وزّع ثروته على أقاربه اللاجئين ولم يُبق منها شيئًا.. كيف يتزوج من فتاة قد سبق لها الزواج؟! هل ضياع أمواله هي السبب؟ أم لأن النكبة لم تُبق ولم تَذَر؟ تبحث عن عبد الكريم الآن.. تغرورق عيناها بالدموع ..عبد الكريم الذي أحبها وأحبته وبنت معه هذا البيت لبنة لبنة.. عبد الكريم الذي تركها واستُشهد وهو في الأربعين من عمره.. جاء سريعًا ورحل سريعًا كلمح البصر!!

تصحو من خيالاتها على صوت يتردد في أرجاء المخيم بأن هناك مساعدات دخلت لكن النظام هو الذي سيوزعها على الناس..

نهضت مهجةُ من سريرها بثاقل وقالت بصوت حاسم:

ـ الشباب لا حدا يطلع منكن.. أنا سأذهب..

اقتربت بيسان وقالت لجدتها: وأنا معك.

ـ بلا ش يا تيتا.. إنتِ بتكتبي على الفيس بوك بلاش يمسكوك.

قالت لها:

ـ بوصلك وبوقف بعيد عنك.

مهجة.. الجدة التي قاربت الخامسة والثمانين.. تقف في طابور طويل.. تسمع كلمات مهينة من النظام والشبيحة.. تمسك الكلمات أن تندفع وتلعنهم في داخلها.. لا تنبِس ببنت شفة وإلا ضاعت الكرتونة التي تحتوي على الأرز والحليب والحلاوة.. خطَت مهجة عدة خَطَوات وهي عائدة تحمل الغلة وركضت بيسان صوبها لتعاونها وتحملَ عنها، وعادتا إلى البيت.

استيقظت مهجة في وسط الليل وهي تصرخ مذعورة؛ لقد رأت في المنام إبراهيم يعانق أخاه مؤيدًا مرحِّبًا به!!

كانت مهجة تتنفس بصعوبة والعرق يبلل رأسها وجبينها.. ظلت تتقلب في سريرها إلى أن دق الباب فجأة في الساعة السادسة صباحًا.. كان ابن الجيران يخبرهم بأن مؤيدًا تصاوب.

عرفت مهجة حينها أن أولادها الاثنين إبراهيم ومؤيدًا قد ذهبا إلى غير رجعة!! الأطفال يصرخون، مهجة تبكي بصمت، توقن أن ابنها لم يتصاوب.. لقد استُشهد هو الآخر! فقد طال غياب مؤيد أكثر من ثلاثة أيام.. لكنهم عندما أحضروا الشهيد وكشفت عن وجهه أُصيبت بالذهول!!

إنه أحمد وليس مؤيدًا!! غاب مؤيد ليبحث عن أخيه!

## الحزن لا يبقى حزنًا واحداً... إنه يتناسل ويتكاثر

«أحمد نحيل الجسم وقطعته صغيرة... ما بيتحمل رصاص ولا ضرب.. أحمد دمه فاير»

هكذا كانت تقول عنه أمه.. جاءته رصاصة قناص!! كانت دائمًا تنتظر خبره في أي لحظة.. لكن في هذه الأيام الثلاثة لم تكن تتوقع استشهاده بسبب غياب مؤيد المفاجئ!! كان يسبّ ويلعن النظام ومن والاه.. ويخرج في المظاهرات الليلية ويكتب على حسابه على الفيس بوك..

آخر جملة كتبها قبل ليلة استشهاده..

«الدكتاتوريات العربية هي يد إسرائيل الحقيقية «وقبلها بأيام

كتب «إذا أردتَ أن يزهر ياسمين الشام من جديد ويعود لدجلة والفرات بهاؤهما النبيل فاعلم أن البداية من القدس»

كان يعلم أن المعركة الحقيقية هناك في فلسطين.. وعندما ضربوا الغوطة بالكيماوي كتب على صفحته.. «أن تحمل القدس في قلبك فهذا يعني أنك تحمل العواصم المعذَّبة.. وأن تحكي حكاية فلسطين فهذا يعني أنك تحكي احتضارالغوطة وبغداد واليمن.. ففي كل حكاية عربية تحضُر فلسطين، وعندما تحضر فلسطين تحضر كل حكايات الوجع العربي؛ فالشريان واحد والجلاد يحمل نفس الملامح»

هذه العبارات التي كان ينشرها أحمد على الفيس بوك.. معظمها من كتابات أخيه إبراهيم ..

كان يدرك تمامًا أن الجرح ابتدأ فلسطينيًا ثم امتدّ واتسع لبلادنا من المحيط إلى الخليج ..

كان يقول :

«تبعثُرنا بدأ من هناك ..عندما صرنا ورقة في مهب الريح ! والمشروع الصهيوني لم يستهدف كل الوطن العربي ومشروعه النهضوي الحضاري ! كل ذرة تراب في الأرض المقدسة تستحق شلال دم ..وكل ذرة تراب في بلادنا مقدسة »

ارتدت مهجةُ الأسود.. توسطت الصالة الكبيرة وأوعزت إلى حفيدتها بيسان ترتيب المنزل وتنظيفه جيدًا وانتظرت المعزِّين!

أخذت تتأمل البيت الذي بنته لبنة لبنة بيدها ويد زوجها.. اختارا كل بلاطة وحجر فيه.. بنت طابقًا لكل ولد من أولادها فصار المنزل مكونًا من أربعة طوابق.. أما ابنتها شادية فقد تزوجت من رسام الكاريكتير سعيد وخرجت من المخيم لتبحث عنه حين غاب وطال غيابه لتعرف بعدها أنه استُشهِد وحينها لم تستطع الدخول للمخيم مرة أخرى..

انقطعت أخبارها تمامًا وعرفت فيما بعد باستشهاد ولديها في المظاهرات التي خرجت للقنيطرة.

في وسط الصالة تجلس مهجة.. تنظر لأحمد وعيناها جاحظتان.. جسد مثقوب بالأحزان، وكأن الحزن لا يبقى حزنًا واحدًا! إنه يتناسل ويتكاثر، وكأن بعضه يستولد بعضًا!

عندما ولد أحمد كان نحيلًا جدًا يزن كيلو ونصف فقط! كان كقطة مغمَّضة العينين، جلد رقيق يكسو العظم، يغطي رأسه شعر أسود لامع وكثيف ورموش طويلة تحتل نصف وجهه.. قال لها الطبيب يومها:

ـ قد لا يعيش طويلًا ..!!

لكنها أرضعته بحب وصارت تطعمه كل يوم شوربة العدس بالقرع وما أن وصل لعمر الثلاثة أشهر حتى صار وزنه ستة كيلو جرامات.. عندما رأته نساء المخيم لم يصدقن وشهقن بدهشة وقلن:

ـ معقول البِس صار خاروف!

لكنه تأخر في الكلام كثيرًا وخافت مهجة عليه وظنت أنه لن يتكلم.. فقد تجاوز عمر الرابعة ولم ينطق بعد!

باحت لها جارتها السورية بسر يجعله ينطق فورًا.. وأسرعت وجلبت لها سبع لسانات وأطعمته إياهن رغمًا عنها فانطلق لسان أحمد بعد ذلك ولم يستطع أحد إسكاته.

أتوا به ممددًا.. اقتربت منه.. أخذت تقبله وتمسح على شعره الأسود اللامع.. تلوّن كفها بالأحمر القاني.. كانت رصاصة القناص مختبئة عند مفرق شعره.

حكت له كثيرًا.. كما كانت تفعل كل ليلة وهو صغير.. تُحكم الغطاء على جسده النحيل وتجلس بجانبه وتحكي له قصصًا عن عز الدين القسام وكم ذُهل أحمد عندما عرف أنه سوري!!

حكت له أيضًا عن الشهيد الشيخ عبد القادر الحسيني وفرحان السعدي وحكاية أبطال عكا الثلاثة عطا الزير ومحمد جمجموم

وفؤاد حجازي..

في بعض الليالي كانا يتبادلان الأدوار فيقص عليها قصص الشهداء لتكتشف بأنه يحفظ قصصهم بحذافيرها فتحضنه طويلًا وتخبره أنها تفخر به..

تتأمله طويلًا وتهمس له:

ـ لقد كبرت كثيرًا يا أحمد.. كبرت لدرجة أنك تحررت من قيودك وصرت أكبر من نفسك الصغيرة.. انتظرني يا بني.. صدقني لن أتأخر كثيرًا.. فخورة بك يا ولدي..

استرجعت كلامه وتحليلاته..

عندما سقط المخيم.. كان يتنبأ بما سيحدث للفلسطينيين داخله.. كان على قناعة بأنه يجب أن يُعلّق الجرس وما دَرى أن الجرس الوحيد الذي سيعلقه لا يكفي لهدم منظومة كاملة ومتوغلة!! نحتاج أجراساً كثيرة نعلقها في رقاب القطط!

كان يتساءل دائمًا:

كيف نجحوا في صنع عدو وهميٍّ مقابل العدو الحقيقي؟

كيف تم توظَّيف المشاعر العدائية التي من المفترض أن تتجه صوب العدو الواضح والصريح وتحوَّلها صوب الإخوة ؟

أحمد لم يكن يحزن على من دخل السجن ولا على من قضى نحبه.. كان يحزن على من تمّ ترويضه!

الكل ينظر إليها.. ويرقبها كيف تتنفس الصبر !!

لسان حال المعزِّين يقول:

كيف بدّل الله خوفها أمنا؟ وحزنها ولوعتها رضًا وخشوعًا؟

كيف يصبح القلب المشتعل خميلة ناعمة والنار تسكن الماء؟

كيف لم تحترق بدمعها؟ بل كيف يغدو الدم بردًا وسلامًا؟

***

يا حبيبي.. يا أحمد.. أخبر أخاك إبراهيم أني آتية إليكم.. أخذوا أحمد من بين يديها.. نامت في تلك الليلة في غرفة أحمد.. وفي الصباح وجدوا شظايا قذيفة نائمة بجانب رأسها والدم قد جف وتيبس على وسادتها.

# النار ستأكل الصامتين أولًا

قد تستغرب عندما ترى الموت يُفلت يدك ويمسك بآخرين أمام عينك!! قد ترى الموت يتسكَّع بالقرب منك يذكِّرك بنفسه في كل لحظة غير أنه يسخر منك في اللحظة الأخيرة ويغير وُجهته فتعيش الموت ولا تذوقه!

يكفي أن يموت شخص واحد أمامك لتختبر الموت وتعرف بشاعته.. ويكفي أن ترى ميتًا واحدًا لتعرف أن الموتى يتشابهون!! يتشابهون لدرجة أنك تظن أنك تعرفهم جميعًا!!

موتى مخيم اليرموك يتشابهون ولا غرابة في ذلك.. إنهم يشبهون التراب الذي جُبلوا به.. تراب الأرض التي سُرقت منهم!!

ذات الملامح ونفس نظرة العين.. إنهم دومًا ينظرون صوبها.. صوب فلسطين ..

وجوههم مشدودة كقوس يتهيأ للعودة.. وعيونهم كسيوف لا تحتمل أغمادها!

الأرض غير الأرض.. لقد ضاقت على أهلها بما رحبت. الأرض تنكرت وخاصمت أبناءها.. غدت لا تحتمل حجرًا ولا

بشرًا.. غدت عارية لا شيء يسترها، كل خطوة داخل المخيم قد تكون الأخيرة، الموت لم يعد الحدث الأكثر إثارة.. على النقيض من ذلك.. أضحت الحياة هي الحدث الأكثر غرابة!!

أكثر ما يؤلم ليس الموت.. المؤلم أنك لا تستطيع تفسيره ولا وصفه.. إنه باختصار.. لا يُوصف ولا يُكتب.. إنه يتسيَّد الزمان والمكان.. لا يكرر نفسه.. رائحته أقوى من صورته!!

الرائحة لا تطاق!! إنها مزيج من القهر والفزع والرعب والظلم..

كل شيء يتغير في طرفة عين.. الأحياء غدوا هياكل عظمية وأشباحًا.. بعضهم يمشي على أربع من كثرة الجوع والإعياء! لا أحد منهم يقدر على مساعدة الآخر وإسناده! وإن كان عنده بعض رمق لمساعدة الآخر فيوفره لنفسه حتى لا يقع!

كانت الجثث تتكاثر بطريقة مذهلة.. حتى أنهم لا يستطيعون دفنها إلا بعد حين.. كل ثانية تمر يستغرب المرء من كونه مازال حيًا!! فكل شيء في المخيم أصبح خصمًا وعدوًا للإنسان!

المخيم لا يستيقظ.. الزمن لا يتقدم ولا يتأخر.. إنه يقف عند نقطة واحدة.. الناس خلعوا ساعاتهم وحطموها فلا قيمة للصباح ولا للمساء.. لا قيمة للوقت!

ثمة جثث ملقاة على قارعة الطريق بدأت تتفسخ وتخرج منها رائحة لا تشبه أي رائحة على وجه الأرض.. إنها أشد فتكًا من رائحة الكيماوي!

الجرذان تجتمع على الجثث، تقضم قطعة من هنا وقطعة من هناك.. أحيانًا تلمح جرذًا يمسك بأصبع بشري.. الذباب يتكوم حتى لا تكاد تميز وتبين ملامح الجثث، الديدان تتسابق مع الذباب.. إنها تخرج بأعداد مخيفة من الجثث.. بعض الجثث ممزقة وأخرى محترقة تفوح منها رائحة شواء آدمي! هل يعقل أن هذا المخيم كان ينبض في يوم من الأيام؟!

كثيرًا ما تحدثوا عن جهنم.. قاعها.. مائها الحميم.. لهبها.. صوتها.. زقومها.. ضريعها.. حجارتها.. أبوابها بماذا تختلف عن المخيم يا تُرى؟ الكل بات يعتقد أنه في جهنم .

في الأزقة والحواري الداخلية للمخيم صمت مرعب متوجس! البيوت مفتوحة على مصراعيها، أكوام الركام والحطام تعلو فوق بعضها بعضًا، لم يتبق في هذه البيوت حجر على حجر، كل شيء مهشَّم كقطع زجاج مهروس.. لا صرير أبواب تُفتح.. لا نوافذ تغلق.. لا شمس تتسلل بدفء، والجوعى يدخلون البيوت المهجورة ينهبون بقايا الطعام إن كان هناك بقية!!

***

نقر ديبو على شباك مؤيد قبل الفجر بقليل.. فتح مؤيد النافذة ليجد رفيقه أمامه بكامل انكساره..

ـ خيا فايق؟

ـ إيه.. يا فتاح يا عليم.. شو في؟ صاير شي؟

ـ ضحك بصعوبة وقال:

ـ افتح الباب دخيلك!

جلس ونظر إلى رفيقه من خلال النور الخافت المنبعث من الضوء المعلق على الجدار.. نكش الأرض بغصن شجرة صغير وقال وهو مطأطئ الرأس:

ـ إذا الواحد مرته حامل ومرات بيغمى عليها من الجوع وولاده صغار بصيحوا ما في شي ياكلوه.. ربنا بيحاسبوه إذا سرق كمشة رز يطعميهن؟

لم يعرف مؤيد بما يجيب.. لقد أرعبه السؤال وأرعبه الجواب.. كيف سيجد جوابًا يليق بهذا الضمير؟ وهل سيظل المخيم يسأل ولا يجد عتبة ليستريح؟

أضحى المخيم يركض بين سؤال وآخر!!

ما حكم من يسرق ليطعم أطفاله؟

ما حكم أكل لحم القطط والكلاب؟

ولم يخطر على بال أصحاب العمائم الذين باعوا عمائمهم للسلاطين والسفاحين أن يجيبوا عن أسئلة القتل والتعذيب والدخان والرصاص؟

ولم يخطر على بالهم أن يجيبوا الناس على أسئلة الشقاق والنفاق!

ألم يعرفوا حجم الأسى الذي يثيره برميل يهوي بلا قرار؟

ما أصعب أن لا تجد جوابًا على دم يراق!!

ما أصعب أن تتبخر الكلمات فلا تسع الألم!!

ثمة أسئلة ستقسم واثقًا أن جوابها يدمر كقذيفة!

خرج ولم يجد جوابًا..

فجأة يرتفع صراخ طفلة لا تتجاوز العامين.. تتعلق بذيل ثوب أمها.. فتبعدها وترفصها وتجرها لتضعها قرب حاوية القمامة وتركض هاربة! الرجال يتابعون المشهد بمرارة وينادون على الأم غير مصدقين ما يحدث.. تهز رأسها والدموع تفر من عينيها تتلعثم وتختنق بدموعها قائلة:

ـ اشتروها بأي ثمن، خذوها إن كان أمرها يهمكم.. إن لم

تستطيعوا شراءها خذوها بلا مقابل..

الكل يتابع بذهول.. عيونهم ترجوها أن تعود.. لقد كان المشهد قاسيًا وقسوته تكمن في أمٍّ عالقة بين الجوع والأمومة!!

تستمر الأصوات المرعبة في الاشتعال كما تشتعل النيران هنا وهناك.. يعلو مواء مرعب وحشي لقطة.. يبدو أنها تُذبح ..فجأة يهدأ الصوت ويستكين!

بدأ المخيم رويدًا رويدًا يخلو من القطط والكلاب وحتى الهوام والحشرات! أعلام ورايات متعددة للفصائل تعلو البيوت المهدمة.. المخيم يمزق نفسه بسكاكينه والعدو الحقيقي يتفرج من بعيد ويصفق بعدما بقيت يده نظيفة!

في بعض الساعات.. يُخيَّل للرائي والسامع أن المخيم في يوم الحساب.. فلا تسمع إلا همسا!

لكن هذا لا يعني النجاة.. فالنار ستأكل الصامتين أولًا!

المسلحون يلاحقون الثوار ويجتاحون الطرقات والأزقة، بعضهم يقف على ناصية شارع لوبيا، يأكلون الهريسة بينما أطفال المخيم ينظرون ويتلمظون، فجأة يركض الأطفال صوب أوراق ألقاها المسلحون، إنهم يلعقون بقايا الهريسة العالقة بالورق!

الذبح يتم على الملأ.. ذبحوا ثلاثة شبان وعلقوا رؤوسهم على

مدخل المخيم أمام الناس! الكثيرون يهربون بملابسهم التي عليهم بعد رؤية هذا المشهد.

المخيم يتنفس اللحظات الأخيرة.. إنه الشهيق الأخير الذي لا زفير بعده..

# إن النفس إذا جاعت
# صفا القلب ورقّ

عندما قال لها:

ـ اسمعي يا بنت الناس إن كنتِ تريدين الزواج من رسام معروف لأجل الوجاهة والشهرة والخروج من المخيم فاعلمي أنني أرسم لقضية.. أرسم لفلسطين ومن يرسم لفلسطين يمكن أن يُقتل في أي لحظة.. ولن أخرج من المخيم مهما حدث ومهما عرضوا عليّ من مغريات!

مرّت على هذه الجملة أكثر من عشرين سنة، تتذكرها جيدًا وكأنه يقولها الآن.. كم تتمنى في قرارة نفسها أن يكون قد استُشهد فورًا! نعم تتمنى ذلك رغم مرارته وفجيعته.. تتمنى له موتًا سريعًا، حنونًا، موتًا طبيعيًا عاديًا كخلق الله، فالموت العادي أصبح غريبًا وشاذًا.. نعم تريده أن يموت بسرعة، لا تريده أن يقع في أيدي النظام، لا تريده أن يتعذب، فريشته هي قلبه النابض.. وقلبه رقيق كريشة لن يتحمل!

أربكتها جملته، صمتت ونظرت إليه مليًّا، ارتجّ الكلام في فمها؛ فهي لا تعلم ما الذي ينتظرها مع هذا الشاب العجوز؟!

ماذا يخبئ لها القدر مع رسام يرسم في كبرى الصحف العربية، يقاتل بريشته وأحيانًا بكاميرته ويرفض مغادرة المخيم.. شاب هرِم!! هكذا كانت تسميه!!

ما لفت نظرها إليه عندما رأته أول مرة وجعلها تفتح فمها على سعته وتجحظ عيناها، أنها رأت شابًا وسيمًا خجولًا، دقيق الملامح، نحيفًا ومنتصبًا كنخلة في صحراء، لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره، لكن رأسه اشتعل شيبا!!

شابٌّ عشريني، رأسة (كوكة بيضا) هكذا قالت لأخيها مؤيد مستغربة!!

فردّ عليها:

ـ شيَّبته فلسطين!

كان يزور أخاها بين فترة وأخرى، تلمحه من بعيد فتشعر بارتياح غريب، تسمعه يردد أغنية يرددها صغار مخيم اليرموك.

أنا سعيد السبع..

عندي من الزكا نبع

لا تحسبوني صغير

ببلع اليهود بلع.. ببلع اليهود بلع..

هذه الأنشودة كان يرددها صغيرًا، ومن جمال صوته وجمال أدائه دار به الأستاذ على فصول المدرسة كلها ليُسمعهم هذا الصوت الجميل..

ومازال يبلع اليهود.. لكن ليس بجمال صوته بل برسوماته.. كل رسمة كانت بمثابة صفعة تدوّخ المحتل، وتحرجه، كل رسمة كانت فجرًا يتسلل برقة إلى المتعبين والحالمين بالعودة!

كان يحفظ كل قصص المخيم.. ويحولها لرسومات.. كان يسرد القصص والحكايات بريشته، كان يكتب ويصفع بريشته!

سمعته مرة يحكي عن ثوب جدته وصوته يرتعش :

استعارت جدتي ثوباً من إحداهن، وكان قصيرًا عليها فقامت بتركيب قطعة قماش أبيض من الأعلى عند القبة، والمفارقة أن القطعة البيضاء كان مكتوبًا عليها هدية من الشعب الكندي للشعب الفلسطيني؛ فهي من بقايا أكياس الطحين التي كانت توزعها الأنروا على اللاجئين !!

كان يحفظ تفاصيل المخيم منذ نشأته إلى هذه اللحظة.. أسماء العائلات المهاجرة.. وعدد سكانه الربع مليون فلسطيني وأكثر من نصف مليون سوري.. يحفظ أسماء المدارس كلها والمعاهد العلمية والجوامع مثل جامع البشير الذي يعد ثالث أكبر جامع بعد الأموي

وجامع حمزة والعباس.. والمركز الثقافي العربي الذي يُعد أكبر مركز في مدينة دمشق وبه أكثر من أربعين مدرسة وعشرين مسجدًا وثلاثين معهدًا علميًا وخمسة مشاف وعشرات النوادي الرياضية ومئات العيادات الطبية.. والبنوك وكل صغيرة وكبيرة في المخيم الذي يبدأ بحارة الفدائية وينتهي بمقبرة الشهداء.

وكان يحفظ أسماء القرى الفلسطينية والعائلات التي هاجرت منها لليرموك وتفاصيل النكبة والتهجير.. وكانت شادية تستغرب هذا الأمر؛ فهي لا تملك هذه الذاكرة الفلسطينية المتوقدة.. لكنها رويدًا رويدًا بدأت تستمع لتلك الأحاديث.. تتنصت عليهم وهي تعد القهوة.. سعيد ومؤيد وإبراهيم وحيدر وشباب آخرون من شباب الجيران.. كانت تلتقط الكثير من الحكايا والتفاصيل التي تسمعها لأول مرة والتي عرفت فيما بعد أنها الشرر الذي يقدح لوحاته كرسام ويُلهب روح الشاعر إبراهيم ويقف مذهولًا مؤيدٌ بينهما!

لم يعد الشيب الطارئ والوجه الطفولي النحيل الرقيق القسمات هو الذي يلفت نظرها في هذا الشاب.. لقد أصبحت هذه الحكايات والذاكرة تقربها إليه أكثر وأكثر.

ذات مرة فتحت له الباب، كانت السيجارة تلتمع بين شفتيه

الرقيقتين كرقة ورق السيجارة، دخل وانتابتها لأول مرة مشاعر مختلفة، كان صوته عاليًا يصل إلى المطبخ الذي كانت تعد فيه القهوة، تنتفض وكأنما أصابتها لسعة حية عندما سمعته يطلب يدها للزواج!!

ليس لأنها لا تريد.. بل لأنها لا تعرف حقًا.. هل هذا ما تريده فعلًا؟!!

كانت خائفة من المجهول وغير واثقة من قدرتها على مجاراته، فهي تعرف من أخيها أنه متقلب المزاج، أحيانًا يكون رائقًا وهادئًا كغيمة محملة بالمطر، ينثر رذاذه على كل من حوله وغالبًا ما يطلب العزلة ويكون قليل الكلام كثير التأمل، لكنه عندما يخرج من عزلته يكون في أفضل حالاته..

عرفت أن حياتها مع رسام كهذا مثقل بالوجع ومقيد بسلاسل الحنين.. ومُدمى كخيل مكممة متعبة من الرحيل ومجروحة بحديد سرجها.. حياتها معه ستكون بدون توقعات.. فكل شيء ممكن.. فكرت طويلًا وأحست بأنها مُقبلة على تحدٍّ كبير.. مغامرة قد تُدخلها في دوامة لا تستطيع الخروج منها.. لكنها قبلت التحدي.

لم يسبق لها أن اطلعت على أعماله أو تابعته.. لكنه منذ ذلك اليوم الذي طلب فيه يدها.. بدأت تطالع رسوماته الكاريكاتورية

المهمورة بعبارات مقتضبة لكنها منتصبة كرمح في صدر السماسرة والغزاة والعملاء والقابضين ثمن الأوطان!

هذه الرسومات عرفتها على ذاتها التي كانت تجهلها، اكتشفت حقيقة نفسها، هذه الرسومات حولتها لكائن قلق يخاف المجهول، تشعر بالفرح وبقيمة وجودها في لحظة ثم تضطرب وتشعر بالرعب وعدم الأمان في نفس اللحظة، فقد كان يرسم ضد المعتاد والمألوف.. ضد الأنظمة التي باعت وراوغت وقبضت ثمن عروشها وكروشها..

تزوجته في ذات العام الذي تزوج فيه مؤيد وخزامى..

***

كانت تفهمه على الطاير.. تعرف طقوسه اليومية، تراعيها بدقة، تبدأ نهارها معه وتختمه معه، صارت تؤمن بأن لوحاته ستعيد للناي ألحانه وللمعارك بهجة الانتصار..

مع طلوع شمس كل يوم كان ينهي لوحة من لوحاته.. ميلاد لوحاته يتزامن مع ميلاد الشمس.. تحضر له فناجين القهوة واحدًا تلو الآخر.. وأحيانًا تغلي له دلة كبيرة.. تفرغ منفضة السجائر كل ساعة تقريبًا، الغرفة تمتلئ بالدخان الذي يحجب وجهه عنها..

كان حزن سعيد يزداد يومًا بعد يوم وبدأ يخفي رسوماته عنها

لأنها عندما تراها كانت تصاب بالذعر والخوف عليه.. لم يعد يأخذ رأيها.. صارت ترى اللوحة في الجريدة بعد صدورها.. تتنهد قائلة:

ـ خايفة يجي يوم ويقطعوا أصابعك إلي بترسم فيها أو يذوِّبهم بالأسيد!

ـ فيرد عليها مازحًا:

ـ ألم أقل لك قد لا أبقى طويلًا!!

ـ أنا لا أخاف عليك من الموت.. له ميعاد لن نتأخر عنه ولن نتقدم.. الموت أهون بكثير من البقاء حيًا!! كل ما أتمناه لك موتًا حنونًا عاديًا!!

موتًا عاديًا.. البقاء حيًا في هذا العالم المخيف ليس مطلبًا أبدًا..

يعرف أن بعض الكلمات مشانق.. لكنه يعرف أيضًا أن بعض الصمت خيانة.. ويعرف أن بعض الرسومات كخشبة المقصلة التي ستُزاح في أي لحظة من تحت قدمك! لكنه يعرف أيضًا بأن الصمت لن يمنحك عمرًا فوق عمرك.. يقول لها ذلك.

في داخل الحلبة صرنا.. لا مناص من المواجهة.. المعركة مفروضة علينا فرضًا ليس لدينا خيار آخر حتى وإن صمت، ألا تعرفين أن الطغاة لن يتركوا حتى لسانك الصامت!! حتى وإن أغلقت عليك بيتك.. فلن يتركوك.. سيضيِّقون عليك كما يُضيَّق

القبر على الكافر.. من يظن أنه ناج إذا رفع الراية البيضاء فهو واهم..

كان يتنفس فلسطين.. ينام على بساطها ويصحو على نسيمها.. كتب فوق إحدى رسوماته ذات مرة:

«سلام على من يتنفسون القدس.. فتمنحهم بركتها.. سلام على من توضأ بدمه ليقيم في الأقصى الصلاة»

واشتد الحصار.. كان سعيد يخرج في الصباح ولا يعود إلا ليلًا.. يصور آلاف الصور.. كان يقف أمام الحصار والقذائف والجنون بصوره ورسوماته.. كان يسابق شيئًا ما.. لم يكن يتوقع أن يعيش لنصف ساعة قادمة؛ لذلك كان همه أن يوثق كل ما يحدث.. فالتوثيق هو سلاح من أسلحة المعركة عندما تفقد كل الأسلحة ولا يبقى سوى الريشة والقلم والصدر العاري..

كان ينطلق يوميًا في المخيم يضع حجرًا على معدته الفارغة.. كثيرًا ما كانت أطرافه تصاب بالخدر والتنمل، وأحيانًا كثيرة كان يصاب بنوبات قشعريرة وبرد، وفي أحيان أخرى كانوا يحملونه إلى البيت حملًا من شدة الإعياء والتعب وكثيرًا ما كان يجد من يحمله ويوصله لبيته.. فكل من في الشارع مثله!! مصابون بالإعياء، عندما يطول غيابه تخرج شادية لتبحث عنه ويعودا للبيت، فيقول لها:

ـ الجوع يقتل فينا أشياء كثيرة ويحيي فينا أشياء أخرى.. بعده لن نعود كما كنا يا شادية.. أحيانًا لا أرى شيئًا.. أفقد بصري للحظات وفي أحيان أخرى لا أرى سوى اللون الأسود فأشعر بأنني قاب قوسين أو أدنى من الموت!

ومع ذلك شدة الجوع جعلتني أستفيق وأرى ما لم أكن أراه وكما قيل «إن النفس إذا جاعت وعطشت صفا القلب ورقّ» أشعر أحيانًا ببرد وسلام عجيب.. أشعر بأنني أقرب إلى الله من أي وقت مضى..

هذا الشعور بمعية الله وقربه هو اللطف بعينه، مع كل هذا الجوع والألم والوجع إلا أن الروح محلقة، راضية، متيقنة بالفرج..

بدا جسده نحيلًا جدًا، عظمًا بلا لحم، وصار (قد الكمشة) صغيرًا ومنحني الظهر، تنظر إليه شادية تشعره أقصر وأكثر هرمًا من أي وقت مضى!!

الجوع لا يهدأ.. والقصف لا يهدأ.. الجوع موت بطيء.. أما القصف فهو موت سريع لكنه لا يأتي!

لم يكن يرسم أبدًا في مكان عمله.. البيت هو مكان عمله الدائم، حيث غرفته المطلة على شارع فلسطين، الشارع الذي يضج بالمارة والباعة والمتجولين والسياح والمطاعم ومحلات الصاغة..

هو لا ينام تمامًا كالمخيم الذي لا يهدأ ولا يفتر..

المخيم وطن داخل وطن، المخيم الذي تشتم فيه رائحة الزعتر وتقطف العكوب وتلتقط الخبيزة وتستمع فيه لأغاني «أبوعرب»..

يا يُما في دقة على بابنا..

يا يُما هي دقة حبابنا.. يا يمة هي دقة قوية..

يا يُما دقة فدائية..

تترنم بسماع الشبابة والمجوز واليرغول، تدبك مع الشباب الذين يدبكون الدبكة الفلسطينية في الشوارع، يطالع الجدران الملأى بصور الشهداء وكأنه يستلهم منهم القوة..

في المخيم لا تملك سوى ذكرياتك المُرّة، ولكي تصبح هذه الذكريات محتملة ومستساغة.. لا بد أن تحكيها.. أو ترسمها وإلا مِت من المرار الطافح في حلقك..

المخيم هو الوجه الحقيقي لضمير العالم المزيف..

المخيم الذي يعج بالضيوف والوفود الذين يأتون من كل حدب وصوب.. شعراء وأدباء وكتاب ووجهاء وشيوخ..

يصدح صوت سميح القاسم في المخيم.. كان المخيم بكل أطيافه ينصت:

تقدموا.. تقدموا..

كل سماء فوقكم جهنم..

وكل أرض تحتكم جهنم..

تقدموا.. يموت منا الطفل والشيخ ولا يستسلم..

وتسقط الأم على أبنائها القتلى ولا تستسلم..

تقدموا بناقلات جندكم.. وراجمات حقدكم..

وهدِّدوا

وشرِّدوا..

لن تكسروا أعماقنا..

لن تهزموا أشواقنا..

نحن القضاء المبرم..

# ناي المخيم

في وقت الحصار لم يعد هناك قهوة ولا سجائر، كان يرسم وفمه مزمزم وكأن السيجارة ما زالت عالقة في فمه، جبينه معقود بست خطوط متوالية، ما بين حاجبيه محمل بضجيج أفكاره وألوانه..

كان يردد دومًا أما م رفاقه «أن العالم سيدفع ثمن صمته على الجرح الفلسطيني جراحًا ستتوغل في جسده.. وتحققت نبوءته.. واندلعت الثورة السورية، بقي المخيم مكانًا آمنًا، لجأ إليه السوريون من المناطق المتاخمة للمخيم إلى أن قام النظام بتوزيع السلاح على زعران المخيم وقام أيضًا بإخراج المجرمين والمرتزقة من سجونه ونصبهم قادة عسكريين للفصائل التي تتحكم في المخيم وتصول وتجول.. فدخل المخيم في أتون الصراع.

***

مازالت شادية تذكر ذلك اليوم بوضوح، لقد كان سعيدٌ يرسم كعادته والقط يتمطّى حوله وينط بين قدميه.. حينما حدث الانفجار الذي ألقى بشدته امرأة وطفلها أشلاء في غرفة المرسم.. يد هنا ولسان هناك ومحجر عينين محترقتين، لقد أصيبت شادية يومها

بالخرس المؤقت من هول المشهد.. أما سعيد فقد تخدرت يداه.. لم يستطع أن يرسم بيده لفترة طويلة..

الأحداث تتناسخ تشبه بعضها بعضًا، الوجوه فقط هي التي تتغير، سيارات إسعاف لا تهدأ، انفجارات تتوالى، أدخنة، أغبرة، المحلات تغلق أبوابها والتجار يسحبون بضائعهم، انفجار آخر كبير قرب محكمة اليرموك..

لكنه عاد للرسم، إن لم يفعلها سيموت حتمًا، سيفقد إنسانيته ومبرر وجوده!

كان يتخيل فلسطين التي لم يرها.. ينظر إليها من سفح الذاكرة، الذاكرة التي غزلها من حكايا ختيارية المخيم .. كان يردد ما يقوله جده دومًا.. «فلسطين للكف الساخنة التي ما هادنت ولا صافحت.. فلسطين لمن رفض السجود لعجل السامري، فلسطين لمن حفرها في الصدر ونقشها في االذاكرة»

تنظر شادية من بعيد.. ترى سعيد وقد ترك الفرشاة والألوان وأمسك بالكاميرا، يركض في طرقات وأزقة المخيم، يوثق الجنازات وعدد الشهداء، يصور المقابر التي تزداد يومًا بعد يوم.. والبنايات التي تتهدم كل لحظة، يزداد خوف شادية يومًا بعد يوم، تحذره كل يوم قبل أن يخرج.. كان يرد عليها بحزم:

ـ للحرية تكاليف لن يطيقها إلا الصابرون.. معركتنا مستمرة حتى وإن زرعوا شوارعنا بالفصائل والتنظيمات التي لها ألف لون ولون.. يا شادية معركتنا ما عادت مع المحتل.. فالسم منا وفينا وكف الإخوة غدا سكينًا!!

الكل يقصف والكل يحاصر والكل صامت..

يقايضون المخيم بالرغيف والدواء والماء والكهرباء ليحني رأسه فيأبى.. فثمن الحرية أقل كلفة من العار لكنهم لا يفقهون!

من المسؤول عما يحدث يا ترى؟

هل هو النظام؟ أم القيادة العامة؟ أم الفصائل الفلسطينية المتواطئة؟ أم وأم؟

بعد فترة لم يعد هناك سيارات إسعاف تنقل الموتى، وشهداء الجوع يتزايدون يومًا بعد يوم، تبرع أحدهم ب (عربته) التي يضع فيها الخضار والفواكه، وضعوها لنقل الموتى الذين انكمشوا وصغُر حجمهم بفعل الجوع وأخذوا يجرونهم في الشوارع بهذه العربات وصولًا للمقبرة..

بدا المنظر مخيفًا، لم يبق في المخيم شجرة ولا مبنى ولا حائط إلا وأصيب بقذيفة أو صاروخ، الأسوار أكلتها القذائف وفي أحسن الأحوال خدشتها وشوهتها، الشوارع محترقة ومليئة بالحفر من جراء الصواريخ..

رجع سعيد ذات ليلة وهو يصرخ:

ـ شادية، أبطالي يموتون أمام عيني ولا أستطيع أن أفعل شيئًا لأجلهم!!

كانوا ثلاثة إخوة أيتام نزحوا من (سبينة) المجاورة لمخيم اليرموك، كانوا يعانون الجوع والإعياء الشديد، عيونهم تمتلئ رعبًا ويأسًا، رؤوسهم حليقة لمرض أصابهم ولا دواء!! يبحثون هائمين على وجوههم عن فتات الخبز بين الأحجار والتراب، ينبشون التراب ويزيحون الأحجار لعلهم يجدون كسرة خبز هنا أو هناك، يحفرون بأصابعهم التي يسيل منها القيح والصديد عن بضع لقيمات، وجوههم مشحبرة سوداء، لكنهم بالرغم من ذلك كانوا مبتسمين عندما قلت لهم.. أريد أن أصوركم.. ركضوا صوبي وابتسموا للكاميرا.. شعرت أنهم نايَ المخيم.. رويدًا رويدًا يا شادية صرت أصور ولا يتحرك لي جفن، روائح بشرية لجثث لا تجد من يدفنها.. رؤوس معلقة على مداخل المخيم لإرهاب وتخويف الناس، عيون موغلة في الاحتراق، أصور وأصور ولا أنفعل وكأن الأمر لا يعنيني!!

ماذا يحصل في الحرب يا شادية؟

هل تجف الروح وتنكمش؟ نعم!! ومن ينجو ينجو بأعجوبة!!

ليس المهم أن ينجو الجسد فذلك قد يكون ممكنًا.. المهم أن تنجو الروح وهذا أمر صعب!!

الموت لم يعد أمرًا غريبًا ولا استثنائيًا ولا مدعاة للحزن.. إنه مدعاة للدهشة والحسد والتمني!!

أرسلتُ صورة أمرائي الثلاثة إلى مسابقة للأنروا.. اليوم وصلتني نتيجة المسابقة، لقد فازت صورتهم، فازت ابتسامتهم في اليوم الذي قضوا نحبهم فيه!!

هل تخيلتِ أن يحدث أمر كهذا؟

كنتُ أظن أنهم سيموتون جوعًا، لكنهم ماتوا برصاص القناص (أبوجهنم) فقد قامت عناصر فلسطينية موالية للنظام (القيادة العامة) بتعليق ربطة خبز على مدخل المخيم وهؤلاء الأطفال لا يعرفون المصيدة التي توضع كل يوم.. كانوا يلعبون لعبة الغولة.. والتفتوا لربطة الخبز فتركوا اللعب وركضوا صوب الخبز فكان الرصاص جزاءهم!!

نيام هم والدم القاتم يسيل من أجسادهم الغضة الطرية، لقد تعبوا كثيرًا، تركوا ألعابهم وأراجيحهم ووضعوا رؤوسهم في حضن الموت الدافئ ليرتاحوا.

ياه.. ماذا تفعل الحرب بنا يا شادية؟

حتى لو نجونا.. لن تكون النجاة تامة!! إنها نصف نجاة.. النجاة من الحرب تشبه جبل الثلج.. يذوب من الأعلى ويبقى في الأسفل النصف الثاني من الجبل الثلجي.. الحرب لا تنتهي يا شادية بمجرد توقف القذائف والنيران.. الحرب لا تمزقنا فقط.. لا تشوه إنسانيتنا فقط، إنها تجعلنا قساة..

الدنيا ليست فيلمًا ينتهي بلقطة السعادة دومًا.. إنها فصل من عدة فصول، قد تكون هناك خسارة في الدنيا، لكن من قال إن الدنيا جنة؟ الجنة هناك يا شادية..

بعدما فازت صورتهم في المسابقة.. بدأ الضوء يتسلط على الصور التي يصورها سعيد.. أحدثت صوره ضجة كبيرة وسُلط الضوء على مخيم اليرموك من جديد وجاءه تهديد بالقتل إن لم يتوقف..

حينها ضحك..

موت..

موتان..

ثلاثة.. هكذا أخذ يعد.. ألا يكفي الجوع والقذائف والبراميل المتفجرة؟!

لكنه لم يتوقف عن تصوير الجائعين والأطفال والمرضى

والشهداء.. وتعجب قائلًا:

هل صوري تؤرق النظام؟

تنتقل شادية بين صوتين..

صوته وهو يقول لها في أول يوم اتفقا فيه على الارتباط ..

ـ من يرسم لفلسطين يمكن أن يقتل في أي لحظة.. وبين صوته الآن...

ـ سأغادر المخيم أنا وعدد من الناشطين المدنيين السلميين، لا تخافي يا شادية.. سيتكفل صديقنا حيدر بإخراجنا من هنا..

ترهف سمعها الآن.. بين الصوتين عشرون سنة .

يحتضنها طويلًا.. يعدها بأنه سيعمل على إخراجها وأولادهم الأربعة من المخيم فور وصوله إلى تركيا، يعدها بأنه لن ينحني وسيفضح النظام ففي جعبته عشرون ألف صورة سيحاربه بها..

بعد خروجه.. ترتمي على أقرب أريكة.. تحضن أطفالها.. يغلبها النعاس.. تقوم مفزوعة..

تتابع أخباره يومًا بعد يوم.. تعرف أنه تمّ اعتقاله من مكتب (جمعية النور)

كانت تتمنى أن تعرف كيف تمّ اعتقاله؛ خاصة وأنه خرج

بضمانة صديقه حيدر الذي دبّر أمر خروجه وتعهد بسلامته.. كيف حدث الأمر!! تكاد تُصاب بالجنون !!

## القمر وُجد
## ليشهد عذابات المحبين

كان لا يعرف ماذا سيقول لها عندما يلتقيها، أي عبارات تليق بهذا اللقاء؟!! أيقول لها ما كتبه ذات ليلة باردة «القمر وُجد ليشهد عذابات المحبين»

أم يقول لها: «إن أكثر ما كان يقلقه مجيء الليل، فالنهار يبتكر النسيان.. يشغلك بكل ما فيه من ضجيج فلا تفطن لحزنك وفقدك.. أما الليل فإنه يهز جذع الأحزان والأشواق، فتساقط عليك من كل حدب وصوب.. يخفت الضجيج حينها يعلو الأنين»

كتب لها في الليلة السابقة لوصولها إلى دمشق ردًا على رسالتها بأنها ستغادر بلغاريا غدًا صباحًا بعدما نجحت في إقناع والديها بأنها يجب أن تلتحق بخطيبها..

سارة.. للشوق حدٌّ بعده يكفّ عن الغليان!! هكذا قرأت ذات مرة.. لكنني أشعر بعكس ذلك.. الشوق لك لا يكفّ ولا ينتهي!

أنا حي يا سارة.. ملامحي تغيرت قليلًا، نحِلتُ كثيرًا، صارت الملابس على جسدي وكأنها معلقة على علاقة ملابس أو عصاة!! معدتي لا تهدأ من الألم وكأنها بدأت تأكل نفسها، وجهي صار أسمرَ غامقًا، يبدو أنه من أثر الجوع، منذ وقت طويل لم أحلق ذقني ولم أقص شعري ولا أظافري، لا ماء للاستحمام، ولا كهرباء لنرى وجوه بعضنا بعضًا، لذلك لا أحد يهتم بمظهره الآن! قبل عدة أيام وقعت المرآة الوحيدة الباقية في المنزل على الأرض من شدة القصف، لملمتها أمي كي تلقيها في سلة النفايات، لكنني أبقيت قطعة صغيرة تحسبًا ليوم مجيئك، لا بد أن أقف أمام المرآة في ذلك اليوم.. نسيت أن أقول لك أن فمي أصبح كبيرًا جدًا وجلدي متهدل وعيناي غائرتان في محجرهما!

سأحدثك عن المخيم حتى يكون قرارك بالعودة إليه صائبًا.. لا أريدك أن تندمي على اليوم الذي رجعتِ فيه، فعندما خرجتِ مع عائلتك في بداية الأزمة لم يكن الوضع بهذا السوء الذي عليه الآن، أزعم أن الناس توقفت عن الكلام وعن لقاء بعضها بعض، إنهم يعتقدون أن المصائب والأحزان كالفيروسات تنتقل عند المصافحة والكلام!

أتذكرين (معروفًا) ذلك الرجل الذي كان يقول إنه لن يموت وإنه يضع تعويذة تحت جلده تحميه من الموت! أتذكرينه عندما كان

يصرخ قائلًا:

«أين الله، لماذا يتركنا نتعذب ولا يتدخل، لماذا يطيل النظر إلينا ولا يفعل شيئًا»؟!

أتذكرينه يا سارة.. لقد تمزق جسده أشلاء.. لكنني سمعته يقول في الرمق الأخير.. يا الله.. يا الله..

كان لا يحتمل ما يحدث أبدا.. المؤمنون في المخيم.. العجائز وكبار السن هم الأكثر احتمالا.. لأنهم يثقون بأن نهاية الحكاية ليست هنا! فللحكاية بقية.

أما هو فقد كان يرى ما يحدث في اليرموك جنونًا!! القذائف، الجوع، البراميل المتفجرة، البرد، القناص، كانت عنده بوادر لإنكار وجود الله، لكن الأمر تطور وقت الحصار.. صار يروح ويجيء في الشوارع ويقول ساخرًا:

ـ أين ربكم؟

ـ لماذا لا ينقذنا؟

كان بارعًا في طرح الأسئلة الاستنكارية، بارعًا في السخرية من رحمة الله ووعد الله!!

أستعيد الآن حكاية أبي عن الخضر وموسى عليه السلام، أتذكر ملامح أبي وهدوءه وهو يسردها على معروف، تلك القصة

المليئة بالغرائب والأفعال غير المفهومة للقدر، كأنه في رحلة تفوق الخيال وقدرة عقل الإنسان على الاستيعاب..

عندما سرد أبي القصة عليه.. السفينة المثقوبة، الجدار الذي يُعاد بناؤه لأهل قرية لا يستحقون المعروف.. الغلام الذي يُقتل دونما سبب ظاهر! كلها أحداث غير مفهومة، ليس لها مبرر وتتعارض مع رحمة الله ومع المنطق.. تتعارض مع حكمة الله وعدالته.. لكن عندما أجاب الخضر موسى على أسئلته.. كأنه كان يقول له:

ـ ينبغي أن نتعلم قراءة أفعال الله.. وكأن الله يرسل لنا رسالة من خلال هذه القصة.. فوراء كل حدث وفعل حكمة إلهية وسر لا نفقهه بإدراكنا القاصر ..وليس معنى ذلك أن نستسلم !!

لا نتقن قراءة أفعال الله.. هذا هو السر!! لا نصبر.. هذا سر آخر!!

لذلك كلما هاج االشك في قلبك وأطبق على عقلك فلم تعد تجد فكاكا منه .. اركض صوب قصة الخضر وموسى عليه السلام ..حينها سيتبلل قلبك باليقين ..ستنجو روحك ..ستوقن أنك في رحلة قصيرة والقطاف لم يحن وقته ...ستُكشف لك الحُجب وسيهون الوجع والنصب ..سترى الفرج سطرًا مكتوبًا في كفك

..الله هدهد قلوبنا المتعبة بقصة الخضر وموسى عليه السلام ..فصرنا نرى العتمة ممرًا للنور ..

تظل الأفواه فاغرة دون أن تعرف السبب.. تبقى العين جاحظة ولا تعرف المقصد.. قد تتأخر الإجابات وقد نموت ولا نعرفها، وقد يدخرها الله لنا ليوم ما.. لكن الذي علينا فهمه أنه كلما انبعثت رائحة الشك في داخلك.. انثر عليها ياسمين اليقين.. اسجد وتبتل وتأمل حالك.. ارضَ..أدعُ..تضرع . حينها سيلقي لك الله بحبله الذي لا ينقطع..

ذهب معروف يومها ولم أره بعد ذلك إلا اليوم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ويناجي ربه..

يجب أن أحكي لك كل ما يحدث داخل المخيم.. إن لم أحكِ سألوم نَفسي، سًاعتبر نفسي خائنًا ولئيمًا.. يجب أن تعرفي كل شيء يا سارة، ما تسمعينه وترينه عبر التلفاز ووسائل التواصل الاجتماعي قطرة من بحر.

اليوم كعادتي خرجت من البيت، قدماي ترتجفان من الجوع وأصوات الانفجارات تملأ المخيم الصامت، غافلتُ أمي وخرجت.. في الشارع التقيت برفاقي (صهيب ونعمان) أخذ أسامة يثرثر ويثرثر.. استغربت من الطاقة التي يملكها للحديث والكلام،

سألته هل أكلت اليوم؟

قال:

ـ نعم.. استغربت!! وقلت له أنت خائن!!

قال:

ـ عمي جاءنا أمس بكيس معكرونة، لا أدري كيف حصل عليه، كنت أجلس في بيت نعمان.. جاءت أمي وأخي الصغير يركضان يبشراني بكيس المعكرونة.. ركضنا صوب المنزل وعيوننا تدمع من الفرح.. وأخيرًا أكلنا.

كنتُ أستمع لصهيب فيما نعمان يحدق به وقد هدَّه الجوع، رأيت من بعيد قطي كنكون الذي اختفى قبل عدة أيام، أصابني الرعب وحزنت عليه كثيرًا فقد اعتقدتُ أن أحدًا ما قد اصطاده وذبحه وأكله.. ركضت بسرعة نحوه وأنا أنادي عليه، عرف صوتي والتفت إلي وركض صوبي.. في اللحظة التي التقيتُ بها كنكون سقطت قذيفة بجوار رفاقي نعمان وصهيب..

ركضتُ صوبهم.. كان صهيب ممددًا على الأرض، لسانه الذي كان يثرثر به قبل لحظات.. هاهو يتدلى من فمه وقد اسودّ وتمزق!! حدقات عينيه سالت على الأرض.. لم أعرف كيف أسدّ عينيه وأغلقهما..

كان الدم يفور من وجهه.. لم أعرف ماذا أفعل.. تركته وركضت صوب نعمان.. كان يئن أنينًا وحشيًا.. كان ملقى على بطنه، والدم يغطي صدره وبطنه.. لم أعرف مصدر الدم.. حملته والدم يسيل على يدي.. لا أعرف كيف فعلت ذلك.. حملته صوب مستشفى فلسطين.. كان يوصيني بأمه وأبيه.. فهمت ما يقول بعد جهد جهيد فكلامه لم يكن مفهومًا أبدًا.. كان صوت الألم طاغيًا على الكلمات، لكنني فهمت.

قلت له.. اطمئن.. لن يعتني بهما ويبرهما سواك.. ستعيش.. صدقني ستعيش.. وسيفرحون بك ويرون أولادك.. عندما وصلنا باب مشفى فلسطين لفظ أنفاسه الأخيرة، كان سيلفظها على كل حال، فلا أدوية ولا أدوات طبية ولا أطباء.. أعرف ذلك من قبل ولكن لا أعرف لماذا ركضت صوب المشفى!!

تأملته طويلًا وهو في الرمق الأخير.. وتساءلت:

ـ لماذا لا يكون الموت أسهل وأسرع؟ أم أن الانتقال من حياة لأخرى يستلزم هذا الألم.. هل العبور إلى الحياة الآخرة يستلزم كل هذا الألم.. ؟!!

وأخذت أفكر كيف سيكون شكل موتي ووقته ومكانه؟ كم سأحتاج من الوقت لتخرج روحي؟!

تذكرتنا في الحارة.. كل واحد منا يلبس بنطالًا بدكة مطاطٍ وبوطَ كتانٍ أزرقَ.. لا نعود للبيت إلا مع غروب الشمس.. نلعب الدحل والسبع بلاطات والطميمة والخرسانة والحرامي والجلاد ولعبة الزقطة بالحصى وجمّال يا جمّال ونركض على سور الجامع كنا نجمع عيدان الملوخية ونعمل منها ألعابًا عجيبة..

فجأة تذكرتُ (كنكون) لم أجده حولي، رجعتُ إلى مكان الانفجار وجدته قد تقطع كما تتقطع قطعة قماش!

أسميته (كنكون) لأنه كان يكنّ ويلبد فور دخولي المنزل.. أحيانًا كثيرة وفي أيام البرد كان يدخل في كمي وينام في فراشي، عندما أدخل المنزل يعرف صوتي فيركض صوبي مع أنه قد يكون منهمكًا في لعبة ما، مع حبل أو ورقة أو يلاحق الحشرات في الحديقة.

ذات مرة كنت أفطر وكان أمامي كأس من الحليب، ظل يموء ويموء وكنت مستعجلًا فلم أفسر مواءه وأسمعه، قفز عليّ ليشرب من الحليب فانسكب عليّ وعلى أرض المطبخ.

عرف أنه فعل فعلًا سيئًا فظل يتمسح بأقدامي ويطأطئ رأسه، في فترة الحصار الكلي، واشتداد القصف حبسته داخل البيت ومنعته من الخروج، كنت أخاف عليه، لكن يبدو أنه لم يفهم سبب المنع

لذلك هرب قبل عدة أيام وعندما وجدته لم أكد أفرح بوجوده، لقد تقطع إربًا، لقد مات فورًا يا سارة، هذا ما أراحني! لم يتعذب، لم يتألم.

***

هناك أمر مبهج حقًا يا سارة، هذه الأيام هي أكثر الأيام التي حضرت فيها أعراسًا!! لم ينتظر أهل المخيم أن تنجلي الحرب، ولا أن تهدأ القذائف.. أقف مذهولًا بين كل عرس وآخر هناك عرس..

في كل عرس أرانا، كل عرس يعطيني أملًا باللقاء، أتوغل كثيرًا في الحلم وكثيرًا ما أصحو على صوتك، ذات مرة ذهبت إلى عرس في المخيم، كان العريس قد جهز قائمة بالأغاني، أغاني أفراح، أغانٍ وطنية فلسطينية.. ناداني العريس وقال لي:

بدي توقف على DG ونجحت في المهمة.. فصرت أذهب إلى كل عرس وعندما لا أذهب يناديني العريس وأهله حتى أُشرف على DG، في الحقيقة كنت أذهب لأراك وأضع الأغاني التي تحبينها، أحيانًا يتدخل العريس غاضبًا:

ـ هي الأغنية ما طلبتها!!

فأرد عليه مازحًا:

ـ لكن العروس طلبتها!

أضع أغنية بعد أخرى وأضع الأضواء، كنت أستمتع بهذا العمل، وكان الناس يتوافدون بأعداد كبيرة على الصالة، الناس في الحرب يغدون مجانين فرح.. يصيرون أكثر رقة وعذوبة ورغبة في الحياة، كل يوم إضافي هو هدية ربانية يستغلونها أفضل ما يكون.

كل المخيم يذهب لحضور العرس، لا معازيم ولا بطاقات دعوة ولا دعوات شفوية، الكل يريد أن يعيش حكاية فرح جديدة، لا يهم كم ستدوم، المهم أن يقتنصوها قبل أن يقنصهم القناص أو برميل متفجر..

أتدرين يا سارة.. ما هو أجمل شيء في الحرب رغم قساوتها؟

الحرب تعلمك قيمة الحياة، الحرب تعلمك طرقًا جديدة للعيش واقتناص الفرح حتى لو كان في فم الأسد.

في الأعراس يوزعون (محلاية) وهي نشا مع حليب.. لن تستطيعي أكلها أعرف ذلك، لكنني آكلها مستمتعًا، هذه المحلاية شئ عظيم يا سارة!

محاصرون ونتزوج!! شيء غريب والله!! لكن هذا ما يحدث يا سارة، فالرغبة في الفرح تتضاعف كلما اشتدّ الألم! لن نكفّ عن الفرح مهما حدث.. أنتظرك يا سارة..

ضغط زر الإرسال وأرسل الرسالة على الماسنجر..

***

وصلت سارة إلى دمشق تاركة أهلها في بلغاريا.. وسكنت عند شادية في منطقة الزهراء حتى تكون قريبة على المخيم.. ريثما تدبر أمر دخولها إليه.. كانت تتواصل مع علاء يوميًا على السكايب واتفقا أن يكون يوم لقائهما في يوم ميلادها ٢٠١٤/١/٢٨.. وأخذت تفعل كل ما بوسعها لمحاولة دخول المخيم.. تواصلت مع الكثيرين.. ووقفت على بوابة المخيم بالساعات.. عملت واسطات ودفعت مبالغ طائلة لمن يقفون على البوابة لكن دون جدوى..

وأيضًا أخذ علاء يحاول الوصول لبوابة المخيم وإدخال سارة معه..

كانا يتحدثان مطولًا عبر السكايب.. علاء كان يسكن من جهة مخيم فلسطين وهي قريبة عليه.. كان يكتب لها:

ـ ليكني.. أنا قريب منك.. ما في بيني وبينك إلا حيط.. هانت يا سارة.. كلها كم يوم وبشوفك..

قبل الموعد المحدد.. تناهى لمسمع سارة صوت شادية وهي تصك وجهها !! سمعتها تتحدث بالهاتف مع أحدهم.. خفضت من صوتها وهمست:

ـ كيف سأخبرها أن علاء استشهد!! إنها ذاهبة إليه.. لقد دفعت مبلغًا كبيرًا جدًا مقابل دخولها للمخيم!!

جفلت سارة زاغت عيونها وارتج جسدها فلم يعد قادرًا على حملها .. سقطت وارتطم جسدها بالأرض، أخذت تئن كحصان جريح ينتظر رصاصة الرحمة.. شهران في دمشق وهي تنتظر اللحظة المناسبة للدخول ولم تفلح كل محاولاتها وفي اليوم الموعود عندما كانت في طريقها للمخيم وكان علاء يحاول الوصول لبوابة المخيم واستقبالها.. عاجله القناص برصاصة!

كان آخر جملة قالها:

ـ الموت يأتي دومًا في الوقت غير المناسب.. إنه لا ينتظر يا سارة!!

دخلت سارة المخيم بعد عشرة أيام من استشهاد علاء.. أصرت على الدخول للمخيم مع أنها تملك الجنسية البلغارية وتستطيع العودة لأهلها هناك فالكل ينتظرها.. لكنها رفضت كل المحاولات والإغراءات بالرجوع والعودة إلى أهلها.

بعد استشهاد علاء جُن جنونها وعندما دخلت المخيم وزارت قبره.. اشترت قبرًا بجانبه وأوصتهم قائلة:

ـ إن مِت ادفنوني قربه!

بقيت سارة في قلب المخيم وسكنت عند حماتها التي فقدت أربعة من أبنائها.

سارة كفت عن كونها أنثى.. ارتدت عباءة سوداء وقصت شعرها وأظافرها وبعد شهور بدا وجهها راضيًا تملؤه السكينة، طوال فترة وجودها في المخيم كانت تنقل الماء مع حماتها وتحمل كراتين المؤن التي توزع داخل المخيم إلى بيتهم..

كانوا يسمونها سارة (المنعنعة) نسبة إلى النعنع لرهافتها ورقتها ودلالها عند أهلها.. لكن عندما دخلت المخيم كان أول ما فعلته هو حجز قبر لها سلفًا بجانب علاء..

في طريقها لاستلام كرتونة المعونة الغذائية التي بدأوا توزيعها في المخيم.. خرجت مع حماتها، وكان هناك اتفاقية مع النظام بعدم القنص والتعرض للمدنيين.. حملت الكرتونة المخصصة لها وجلست على الرصيف بانتظار حماتها فعاجلها القناص برصاصة في صدرها.

أما سارة فكانت آخر جملة قالتها:

ـ إنه الوقت المناسب تمامًا للموت..

***

# أبو جهنم

الناس يتراكضون صوب ذلك الرجل الشهم الكريم الأصيل.. كانوا يتهامسون:

ـ لو في منه ثنين لنجا المخيم!

كان الشاب القصير الأسمر الأصلع يقف أمام قِدر كبيرة جدًا فيما كان رفيقه ضياء يقف بجانبه.. تجمّع أمام القِدر الكبيرة ما يزيد عن مئة طفل وبعض الآباء والأمهات الذين لم يُبق الجوع منهم ولم يذر!

ينظر إليه الجميع مفتونين بكرمه وشجاعته، يحرك الأرز والماء بيديه الغليظتين حتى ينضج، فقد كان يملك يدين عريضتين تستطيعان تحريك قِدر كبيرة مليئة بالأرز والماء وحده ودون مساعدة أحد!

وفي أحيان كثيرة كان يطبخ العدس أو المعكرونة ويوزعها على الجموع الجائعة.. كل صغير يمسك بصحنه ويركض صوب بيته.. عندما يستلمون صحونهم المملوءة فتلمس أيديهم يده فيرهبهم أنها صلبة وباردة ويابسة كالصوَّان.

الدعوات تعلو فيما راح عدد من الآباء يلعنون النظام ومن والاه.. ابتسم حيدر وهو يسمع الشتائم وكأنه حصل على غنيمة أو جائزة.. كان متيقظًا لكل حركة وكلمة وهمسة..

ينظر للجموع ويتفحصهم جيدًا واحدًا واحدًا.. يرى نظرات الامتنان والشكر في عيونهم..

بعد استواء الأرز يقف الأطفال في طوابير واحدًا تلو الآخر.. كانوا صغارًا لا تتجاوز أعمارهم العاشرة إلى الخامسة عشرة، لكنهم من الجوع والإعياء بدَوا وكأنهم في السادسة أو السابعة من أعمارهم..

في منزل حيدر الكثير من الصور الحديثة بعد حصار المخيم وإغلاقه، صورته وهو يطعم الطعام، صورته وهو يحرك الأرز في القدور الكبيرة، صور بإطار ذهبي وهو يعيد حفر آبار قد رُدمت منذ زمن طويل.. آبار قام بحفرها رجل طيب من مغاربة فلسطين اسمه (محمود البير) هكذا كانوا ينادونه لأنه حفر نصف آبار المخيم.. حيدر كان خليفة محمود البير فهو الذي أعاد حفر الكثير من الآبار بعد أن قُطعت المياه عن المخيم!!

في العيد قام حيدر بنصب أراجيح كثيرة في شارع فلسطين تمامًا كما كان يفعل أبو علي الحسيني..

كان الأطفال رغم الجوع والإعياء يأتون ليلعبوا في الساحة دون مقابل.. يرددون ما يردده آباؤهم من أناشيد وأهازيج العيد..

يا أولاد محارب.. .يويا

قوالب صيني.. .يويا

شدوا القوالب.. يويا

مثل الفليني.. يويا

عندما يصل المخيم للرمق الأخير ويوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.. يتقدم حيدر ويُنفِّس عن المخيم كربته..

أنهى حيدر توزيع الطعام، استدار عائدًا لبيته، ذلك البيت الذي حُفظ من القصف والجوع بسبب جوده وخدمته للمحتاجين.. فقد كانت خزائنه ملأى بالأرز والبرغل والعدس والتي لا يبخل بها على أهل المخيم بين الحين والآخر..

***

طُرق الباب ثلاث طرقات خفيفات بالكاد تسمع.. أسرع حيدر ليفتح الباب، فإذا بطفل لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره.. هكذا قدّر! وقد يكون أكبر من ذلك بثلاث أو أربع سنوات.. لكن الجوع فعل فعلته به.. أصابع قدميه تخرج من حذائه المهترئ، يرتجف بردًا، رائحة فمه لا تطاق؛ يبدو أنه لم يذق الطعام منذ عدة

أيام! ركض صوب حيدر يرجوه أن يعطيه صحن أرز لأنه لم يسعفه الوقت ليلحق بهم في الساحة.. أومأ حيدر برأسه.. عاد إلى المطبخ وتبعه الفتى، سكب له صحنًا من الأرز، أكل حتى شبع.. وخرج سريعًا ومن شدة إعيائه وتعبه غفا قريبًا من الباب تحت شجرة اللوز ولم ينتبه له أحد.

متكئًا على يده نام الصغيربعدما شبع، لم يصحُ إلا على صوت صرير الباب وهو يُفتح قبل الفجر بقليل، كانت عينا حيدر تتلفت يَمنة ويَسرة وكأنه يريد أن يتأكد أن لا أحد يراه، خطا خطوات ثم عاد ونظر خلفه ليتأكد أن لا أحد يتبعه، تابعه الصغير وهو يحبس أنفاسه، رآه يحمل بندقية قنص على ظهره، تأكد حيدر من تركيب قطع سلاحه، جرّب السلاح مرة تلو المرة، جهز مِنظاره، وضع سلاحه على ظهره، عندما ابتعد قليلًا عن منزله، وضع جوربًا مفتوح العينين والأنف ومضى..

لم يكن الصغير صغيرًا!! ولم يكن ساذجًا؛ فقد تذكر كلام أبيه..

ـ ربما يكون قناص اليرموك منا وفينا.. القناص رجل من المخيم يعرفه جيدًا، يعرف كل واحد فينا ويسمع كل كلمة وهمسة ويراقب كل حركة.. لابد أننا سنرى مكانه في أسفل نقطة في جهنم.

لقد كان المخيم يطلق على القناص عدة أسماء.. أكثرها شهرة

(أبو جهنم) من كان يتخيل أن الرجل الشهم الكريم الذي يُنفِّس كرب المخيم هو نفسه الذي يُطلق عليهم النار ويتلذذ بقتلهم؟!

كيف يرتدي الرجل صاحب الأيدي البيضاء في لحظة وجه قاتل؟

كيف يغدو الوجه الملائكي الضحاك وجه شيطان؟

أحس الصغير في لحظة بأن عينا (أبو جهنم) تتبعانه، لبَدَ في مكانه إلى أن طلع الفجر.. ثم ركض صوب أخته بيسان.. .

***

يأخذ القناص مكانه متخفيًا خلف ثكنات ومتاريس فيها فتحات صغيرة تخرج منها فوهة البندقية وفي أحيان كثيرة يصعد على إحدى البنايات المهدمة ويطلق نيرانه من إحدى النوافذ..

لم يكن أبوجهنم يتخيل في يوم من الأيام أن يمسك بندقية ويقنص أهل مخيمه.. قبل سنوات ذهب متخفيًا إلى أهل زوجته يخبرهم أنه يريد الهرب إلى أوروبا.. كان قد جمع مبلغًا كبيرًا لهذا الرحيل، كان خائفًا على زوجته وأولاده.. هرب من العسكرية وقال لزوجته:

ـ ما فيني ظل.. ما بدي أقتل حدا وما بدي أنقتل.. بس خايف عليك وعلى الأولاد، خايف يفكروا انشقيت وهربت وينتقموا منك ومن الأولاد..

لكن زوجته طمأنته وقالت له:

ـ إذا سألوا عنك سنقول لهم إننا لا نعرف عنك شيئًا وأنك اختفيت منذ مدة ولم نعد نراك..

وفعلًا هرب حيدر من العسكرية لكن وصل خبره إلى زوجته بأنه تم اعتقاله!!

في السجن يحدث التحول الفظيع، فما كان يترفع حيدر عن فعله سابقًا نتيجة مبادئه وعلمه وإنسانيته.. هاهو يفعله طائعًا لا مُكرها! هل كان الشيطان مستترًا خلف جلده؟

كيف حدث هذا التحول والانقلاب؟

أم حينما تتاح الفرصة يستيقظ الكفور؟

تم ترويض حيدر في السجن ليتحول اسمه إلى «أبوجهنم».. بالسوط والخبزالمغمس بالدم ..بصعقات الكهرباء وضربات الكوابل اكتمل التشويه !!

وضعوه في زنزانة انفرادية أشبه ما تكون بمسكن كلب! فحتى يدخل للزنزانة لابد أن يمشي على أربع، مُنع من الأكل والشرب وضُرب بالسياط حتى نزّ القيح والصديد من جراحه، ظل على هذه الحال شهورًا طويلة.. وهو يصر على رأيه.. لا يريد أن يقتل أي أحد! لا يريد أن يتجسس.. وعندما شارف على الموت جاءه

الطبيب ليضع له المغذي ويمسح على جراحه لا شفقة عليه بل حتى يهيئه لجولة جديدة من التعذيب!

جولات التعذيب التي لا تنتهي صنعت منه إنسانًا آخر.. شوهته من الداخل، أصبح أقرب للحيوان فعلًا، لكنه يريد أن ينجو بأي طريقة حتى لو صار كلبًا يمشي على أربع! وخرج فعلًا لكنه لم ينجُ!

خرج ليجد زوجته وأطفاله قد استشهدوا في إحدى غارات النظام على مخيم اليرموك!

***

في ذاكرته يحمل كل صور ضحاياه.. عندما يعود إلى بيته يحوطونه.. يقفون فوق رأسه، يتمنى لو يُشفَى منهم.. يركلونه بأقدامهم، يشدون حبالًا حول رقبته بإحكام فيصرخ مذعورًا ممسوسًا، لا يستطيع النوم مطلقًا! قد يغفو لدقائق وهو يمارس القنص، في هذه الدقائق ينجو أحدهم من طلقاته.

في كل ليلة تتقدم ضحية من ضحاياه.. تتشفى به، تنتقم منه، يتبادلان المواقع، فالضحية بعدما يموت يصبح جلادًا يطارد قاتله، يبصق في وجهه، يسخر منه، يصرخ بأعلى صوته، يجلده بسياط غير مرئية، يرتجف القناص، يستغيث، يتلوى من الألم، يغور صوته من

شدة الألم، يخرج من بيته هائمًا على وجهه، يتكور كجنين في بطن أمه في إحدى زقاق المخيم.. خائفًا.. مرعوبًا من كل شخص يمر بجانبه!

لقد قتل الكثير من أبناء المخيم.. قتل المئات لحَدِّ الآن، قتل شيوخًا ونساء ورجالًا وأطفالًا، كان يقتل الخائفين أكثر، كانوا يستفزونه بخوفهم وارتعاشهم وكأن القناص يصبح كلبًا، تثير شهيته رائحة الخوف فيتلذذ بقنص الخائفين المرتجفين، كان يسلط الطلقة إلى أفواههم مباشرة وأحيانًا كثيرة كان يقتل بلا سبب.. يقتل ليقتل الضجر والملل، يقتل ليتلذذ برعب وارتجاف الضحية أمامه، يقتل حتى لا يُقتل من أسياده.

في البدء كان يرتجف عندما يضغط على الزناد، يغمض عينيه عندما يرى رعشتهم الأخيرة وتأرجح الروح والزفير الأخير.. يصُم أذنيه عن استغاثتهم، لكن لم يمر وقت طويل حتى بدأ يتلذذ بمشاهدة ضحاياه وهم ينزفون ويقبضون بأصابعهم على التراب المغمَّس بدمائهم.. ومع كل ضحية جديدة كان يحصل على متعة إضافية، متعة ناتجة عن تأوُّه الضحية وصوت غرغرة روحه وجحوظ عينيه.. لا تلبث هذه المتعة أن تتحول إلى لعنة إضافية ليلية!!

لقد كان أبوجهنم يعتقد بأنه يريح ضحاياه!! يمنحهم فرصة الموت السريع، فلا ألم التعذيب ولا وجع وانتظار ولا ذل وتمنٍّ للموت!! إنه يمنحهم الموت بسهولة.

عندما يقنص أحدهم يريحه من عناء الذل والانكسار، من تحطم الذات والإرادة واحتراق الرجولة، إنه يموت لمرة واحدة فقط، يموت جسده فقط أما روحه فتبقى في كامل عنفوانها وكرامتها وعزتها وكبريائها.

كان يحدث نفسه بأنه أرحم من الجلادين الذين يحرصون على عدم موت ضحاياهم، يعذبونهم، تأكل السياط والكوابل من لحومهم مزقًا، تسلط الكهرباء على أدمغتهم وعوراتهم وقبل أن يصلوا لمرحلة الغرغرة يأتون بالطبيب ليمسح جراحهم استعدادًا لجولة أخرى من التعذيب كما حصل معه!

أما القناص فهو أرحم من الجلادين.. إنه ينهي كل شيء بطلقة واحدة!

ضحيته لا تستجدي أن ينهي كل شيء بسرعة.. لا تتحول إلى حيوان جريح يعوي، لا تفقد إنسانيتها وبشريتها.. لا تتحول مسخًا.

طلقة واحدة تنهي كل شيء.. ويبقى الضحية بشرًا بكامل إنسانيته وبشريته.

أما إذا كان الهدف المتحرك امرأة.. فكانت رغبته تتضاعف في قنصها وإراحتها.. فلا شيء أصعب من صوت امرأة جائعة تبحث لأطفالها عن طعام!! لقد أراح العديد من النساء.. منهن من تحمل صغيرها.. منهن من تركت صغارها لتعود إليهم بلا شيء! ومنهن من لفظت أنفاسها وجنينها في بطنها.. واحدة منهن أخذت وقتًا طويلًا لتموت، لم تنطفئ مرة واحدة، ظلت تضرب بأقدامها الأرض ودمها يتصفى قطرة قطرة، بينما طفلها كان يمسك بعلبة الحليب التي حصل عليها للتو، أخذ الطفل يبكي ويصرخ فعاجله برصاصة ليريحه وبرصاصة أخرى لأمه أيضًا كي يريحها من الموت البطيء!

قنص سارة التي دخلت المخيم لتلتقي بخطيبها فوجدته قد رحل برصاص القناص قبل أن تراه للمرة الأخيرة.. قنصه حتى يرتاح من قصة الحب التي عذبته.. وعندما دخلت سارة قنصها أيضًا ليريحها!!

وقنص ذلك الرجل الذي انتشر خبره في اليرموك بأنه يصنع أقنعة واقية من الكيماوي.. وبدأ الناس يتوافدون عليه لشراء الأقنعة خاصة بعدما ضُربت الغوطة بالكيماوي.. يقف الناس طوابير.. يشترونها ويستمعون لتعليماته وإرشاداته في التعامل في حال حصل هجمة كيماوي!

ترصده وهو يقف على زاوية بيته.. سخر منه وقنصه بطلقة واحدة لا بالكيماوي الذي يخشاه!

كان أبوجهنم في كل صباح يفكر كيف يختار ضحيته القادمة!! وكيف سيغير وجهه في اليوم مرتين ؟ وكم ضحية سيقنص في اليوم؟ وفي كثير من الأحيان لا يكون القنص وسيلته للقتل.. فقد يقوم بتسليم ضحيته لأيدي النظام وهم يتكفلون بالأمر كما حدث مع سعيد!!

إجابات هذه الأسئلة كان يحصل عليها بمجرد أن يقوم بطبخ الأرز والماء وتوزيعه على أهالي المخيم.. في تلك الطوابير التي تنتظر الطعام كان يضع إشارات على الضحية القادمة!!

عندما سمع بفوز صورة سعيد بمسابقة الأنروا.. بدأ يتتبّع الأطفال الثلاثة الذين صورهم سعيد وفازت صورُهم.. بحث عنهم طويلًا.. نظر في عيونهم.. تأكد منهم.. شعورهم حليقة وجلودهم أكلها الجرب والحرب ابتلعت أباهم وأمهم.. .

وجدهم أخيرًا..

وجدهم يلعبون عند دوار البطيخة ويغنون:

مادامت الغولة مشغولة.. وينك ياغول

فيرد أحدهم:

عم غسِّل وجهي..

وهكذا يعيد الأطفال العبارات السابقة عدة مرات.. إلى أن يقول الغول عم بفرش سناني.. عندها يهرب الكل ومن يمسكه الغول يموت..

لكنهم قُتلوا جميعًا في نفس اللحظة.. أمسكهم الغول ببندقيته.. قنصهم الغول الحقيقي الذي ظنوا أنه لعبة!

***

# الموت لا يخون أبدًا .. لكنه يؤجل المواعيد

في هذا المساء وتحت صوت المطر المختلط بصوت القذائف في الخارج تغمض مهجة عينيها تخرج صندوق الصور القد يمة، فتجد صورتها وهي طفلة صغيرة تتوسط أباها وعمها.. تتلمس صورة أخرى.. وهي صبية غضة ثم تعود لتتلمس وجهها من جديد فتغرق أصابعها في تجاعيد الوجه ونتوآته.. تتحسس أقدامها وعروقها الزرقاء النافرة، تبلع ريقها فتشعر بطعم الموت في فمها.. ومطبوعًا على كفها.. دومًا تحسه كما هو طعم التهجير الأول والارتجاف الأول والرعب الأول.. التهجيرالأول لم يبق أولًا.. بل ثانيًا وثالثًا وعاشرًا.. الكابوس نبت عدة كوابيس ممتدة!!

«الموت لا يخون أبدًا.. ولكنه يؤجل المواعيد!! ليته يأتي سريعًا.. ففي كل يوم يحفر أخدودًا يلقي فيه الأحبة أمام عينيها وما عاد القلب يحتمل مرارة الفقد أكثر!»

كانت ترتعب من الموت لكنها الآن تشتهيه وتتساءل فقط عن ملامحه ووقته الذي سيأتي به!!

كيف ستموت؟ هذا السؤال الذي أرّقها؟!!

بطلقة قناص كما مات ابنها أحمد؟

أم بشظايا قذيفة؟

أم تحت التعذيب كما ابنها إبراهيم؟أم جوعًا وقهرًا؟

أم سيأتيها كزائر لطيف؟ كل ما تعرفه أن النهاية قد اقتربت كثيرًا.. أكثر مما تتصور!!

تعانق صور بيسان وأسامة وعز الدين ويحيى وليلى.. تبحث عن صور شادية ومؤيد وإبراهيم وأحمد وخزامى.. تعانقهم وتبكي..

بين الصحو وطرقات الذاكرة ترى أشياء كثيرة الآن..

«قد تجف الذاكرة.. قد تهرم وتصبح عجوزًا.. لكنها لا تموت أبدًا.. إنها تُبعث من جديد بقطرة دم وببهاء دمع.. أو برنين مفتاح من مفاتيح الدور التي أتعبها الانتظار!»

في الخامسة والثمانين من عمرها هي الآن.. لا تدري كيف انفرط عمرها كما تنفرط حبات الرمان..

انتظرت طويلًا لتحكي حكايتها.. هل هناك من يسمعها يا ترى.. هل فات الأوان وجفت ويبُست الحكاية؟!

الحكاية تتفتح داخلها كالنوار.. تبحث عن القلم لتكتمل..

تمد يدها وتقطف.. تقطف الحكايا وتلقيها على عربة الورق ليتلقفها الأحفاد في يوم ما..

كتبت:

فكرتُ طويلًا قبل أن أقطف نوار الحكاية وأنثرها لأحفادي وما تبقى من أولادي.. لم تكن المهمة سهلة ويسيرة وأنا امرأة على مشارف التسعين.. لكنني مازلت قادرة على القطاف والإمساك بزمام الذاكرة وقد يكون الفضل في ذلك إلى نوعية غذائي.. فقد كنت آكل البيض النيِّئ.. أفقسه على كأس الحليب وأشربه.. لم أكن آكل إلا لحم الضأن الصغير الذي لم يتجاوز الستة أشهر، لا آكل المقالي وأُكثر من أكل الزيتون والتين وأشرب يوميًا فنجان زيت زيتون..

مهجة.. نعم هذا هو اسمي الذي منحني إياه والدي مختار قريتنا الصغيرة الوادعة التي لا تبعد عن طبريا سوى بضعة كيلو مترات.. أبي سيد القرية الذي يملك بيارات البرتقال والليمون وبساتين الفاكهة والذي يصدره عبر البحر لأوروبا، كان أهل القرية يعتبرونه من الإقطاعيين بحكم ثروته الكبيرة ولا أدري إن كانت المخترة والمكانة تأتي مع المال أم أن المال هو الذي يأتي بها.. أم أن أبي كان حكيمًا فعلًا!!

كان أبي قاضيًا يصلح بين الناس وينصحهم ويحل مشاكلهم مما أهَّله ليكون سيدهم ومختارهم والناصح الأمين الذي يعودون إليه في الملمات الكبيرة والصغيرة..

صورة تأتيني منذ سبعين عامًا.. تأتي الآن صورة البيت الذي كنا نسكنه.. في الحقيقة لم يكن بيتًا كبيوت القرية.. كان قصرًا يعلوه القرميد.. فيه الخدم والحشم.. طباخون وحصادون وحراثون ومضيفون وبحكم مكانة أبي وغناه كنتُ أول فتاة تقرأ وتكتب من بنات القرية حتى وصلت للصف السادس، وقرر أبي أن يرسلني إلى حيفا لأكمل تعليمي هناك ومن ثم يرسلني إلى بيروت لإكمال دراستي الجامعية.. وقد بلغ صيتي القرية والقرى المجاورة.. أستطيع أن أتخيل نفسي وأنا أقف على شرفة القصر.. صورتي لا تغيب عن بالي.. فتاة تهتز لها الأرض وتطرب.. الطول الفارع والعينان العسليتان الشهلاوتان، الغمازة أسفل الذقن، الابتسامة الهادئة، الصمت العذب الجذاب الذي ينم عن حكمة وتريث وهدوء ورثته عن أبي.

كبُرت في هذا البيت الذي لا يشبه بيوت أهل القرية في ذلك الزمان، كنت أراقب البيوت البسيطة والحراثين والصياديين بينما كان بيتنا ومن فيه له امتيازات خاصة حُرمت منها بيوت القرية..

كانت جدتي في كل يوم جمعة وبعد صلاة الظهر مباشرة تبخِّر البيت ببخور حجازي مازالت رائحته عالقةً في أنفي إلى الآن، تصلي الظهر وما أن تنتهي حتى تكون زوجات الحراثين والفقراء والمساكين ينتظرونها عند عتبة القصر، فتعطي كلَّ واحدة منهن صرة فيها طعام وما تجود به نفسها من نقود وأحيانًا توزع عليهم الألبسة والثياب التي مللتُ من ارتدائها أنا وأخي الوحيد محمد.

كبرت وأنا أرتدي كل عدة أيام ثوبًا جديدًا.. وأزين رقبتي بالسلاسل والخواتم الذهبية.. وعندما كبرت قليلًا والتحقت بمدارس مدينة حيفا كنت أعود بصحبة أخي محمد إلى القصر فأجد أمي وجدتي قد أعدتا ما لذّ وطاب من الأطعمة..

في تلك الفترة وعندما كنا نعود من حيفا.. وذات مرة مررنا بزقاق، طريق غير معتاد يوصلنا للقصر.. حينها وقعت عينا أخي محمد على (دلال) دلال التي تحمل جرة الماء على رأسها، دلال بنت القرية البسيطة الفقيرة التي لا تتقن القراءة ولا الكتابة والتي لا يمكن أن تتقاطع حياتها مع حياته بأي شكل من الأشكال.. لكن بدا من نظراتها ونظراته أنهما عثرا على بعضهما!

سأتوقف قليلًا هنا.. لأحدثكم عن دلال..

دلال صبية صغيرة مدورة الوجه، قصيرة القامة، عندما

تضحك تغور عيونها ولا تظهر ولكن عيونها تضحك قبل أن تضحك.. لم تتورط في التعاسة والحزن الذي عاشت فيه.. نشأت في بيت جدها المتواضع لأم شابة تزوجت رجلًا كهلًا وأنجبت منه ثلاث فتيات، دلال أصغرهن، لكن هذا الكهل نبذ زوجته وصغيراته وتزوج من أخرى!! لقد كان يفعلها كل حين.. يتزوج شابة صغيرة، ينجب منها.. ثم يتركها.. جُن جنون البنات عندما رأوا أباهم العجوز يتخلى عن أمهن ليتزوج بشابة أخرى!!

رحلت البنات إلى بيت الجد الفقير. بصمت ... فالحزن والوجع والمصائب هي ملك للصمت وليس للكلمات ..

صارت الأم أكثر هشاشة من ذي قبل، أما البنات فلم يعدن كما كنَّ صارالوضع معقدًا وصعبًا وأشعل قلوب الفتيات بالحقد والحسد واكتفوا بالصمت والمراقبة!

كانت الصاعقة عندما ذهب أخي محمد إلى أبي وفاتحه برغبته بالزواج من دلال! حينها استشاط أبي غضبًا! كيف لابن المختار الذي يعدّه للسيادة والمخترة ويعتبره وريثًا للرئاسة والجاه والمنصب يترك كل جميلات العائلات الأصيلة والغنية ذات الحسب والنسب والشرف ويرضى وهو الشاب المتعلم الذي يوشك أن يدخل الجامعة بهذه الفتاة البسيطة؟!

جُن جنون أبي وأقسم ألا تتم هذه الزيجة.. وجُن جنون العاشق الولهان وأضرب عن الطعام والشراب ولزم الفراش وبدأ يذوي كذبالة النور وأخذ المختار يرقب وريثه وخليفته وهو يقترب من حافة الجنون وحافة الحياة.. وبدأت قصة الحب تنتشر في القرية وتدخل وجهاء القرية وكبارها وأقنعوا والدي أن يتنازل عن رأيه وينصاع لرغبة ابنه حفاظًا على حياته وحنث المختار بقسمه خوفًا على ابنه المريض وأرسل مرغمًا وجهاء القرية ليطلبوا يد دلال من أبيها الكهل المزواج..

وكحطام سفينة مثقوبة في عرض البحر لا نهاية لما يحدث لها.. في وسط العاصفة صرنا وبدأ الماء يتسرب إلى داخلها..

العاصفة تلوح بنا ذات اليمين وذات الشمال، أحيانا نمسك بقطعة خشب فننجو وأحيانًا تأتي موجة تلقينا أسفل سافلين.. حيث العتمة والبرد والتيه الذي لا قرار له!

أخذ أبو دلال يفكر في هذا الطلب.. يقارن بين ابنته البسيطة والشاب الأمير صاحب الحسب والنسب والجاه والعلم.. لم يصدق هذا الطلب ولعب الفأر في عُبِّه ووصل إلى استنتاج أن هذا الطلب مجرد نزوة عابرة سرعان ما تذوي الفقاعة ويتغير الشاب ويلفظها وتعود ابنته إليه مطلقة!!

وبدأ يفكر ويفكر ويقلب الأمر في رأسه ووصل إلى قرار يعجز الشيطان عن الوصول إليه.. لقد قرر العجوز المزواج أن يخطبني لنفسه بديلة لدلال التي يريدها أخي محمد!!

عندما سمع أبي الطلب لم يصدق هذا الهراء.. وأخذ يصرخ..

مهجة ابنة الخامسة عشرة والتي لتوها أكملت المترك.. المتفوقة.. جميلة جميلات القرية.. ابنة الحسب والنسب والتي تتوق للالتحاق بالجامعة في بيروت تتزوج من كهل ستيني!!

هل جُن جنون هذا العجوز؟!

قال الوجهاء لأبي:

ـ نعم إنه يريد أن يحفظ حق ابنته الفقيرة المعدمة؛ فهو لم يتخيل ولا في أحسن أحلامه أن يتم هكذا زواج ويريد أن يضمن حق ابنته ومستقبلها وبالتأكيد أخذ يقارن بين هذا الشاب الوسيم صاحب الحسب والنسب والجاه والثراء وبين ابنته البسيطة وشعر بالخوف على ابنته من هذا الطلب الذي قد يكون مجرد نزوة عابرة تزول فتعود ابنته مطلقة..

وظل هؤلاء المنافقون والوشاة ينفخون ويصولون ويجولون أمام أبي.. يصرون أن يزوجني على عجل ويرددون باستغراب:

ـ تخسر ابنك!! الوريث الوحيد لهذا العز والجاه من أجل

شقفة بنت!! ستعيش كما عاش غيرها.. لا تفكر كثيرًا..

صكت أمي وجهها، شقت ثيابها، وجفَّ دمعها وغار!! لكن تأثير وجهاء القرية ومنافقيها كان أكبر بكثير.. وهكذا أصبحت كل تلك السنوات التي عشتها في القصر مجرد حلم وسأفيق الآن على الحقيقة المرة..

القصر.. الخدم.. الذهب.. مدرسة القرية التي درست فيها للصف الرابع.. مدرسة حيفا التي درست فيها للمترك وتفوقت ونلته وأنا في عمر الخامسة عشر.. كل ذلك غدا وهمًا.. في لحظة تغير كل شيء!!

ودخلت دلال القصر.. وخرجت أنا لأتزوج ذلك الرجل الستيني العجوز!

خرجت من القصر.. التفتُّ إلى الوراء.. رأيته وكأنني أبصره لأول مرة.. البوابة الحديدية العالية الأسوار.. التي تفتح على صالة واسعة كمن تفتَرُّ عن ابتسامة واسعة بيضاء لامعة، السجاد العجمي الذي تنتشر قطعه في أرجاء القصر، الثريات التي تخطف الأبصار، النوافذ الصغيرة الحجم المقوسة والتي يتسلل منها عروق الياسمين والفل على استحياء، المرايا الكبيرة اللامعة، الأرضيات الرخامية والتي جُلبت خصيصًا من دير ياسين وجنين، الأرائك

الجلدية والزرابي المبثوثة هنا وهناك، دِلال القهوة وعلب السجائر الموزعة على الطاولات، الطاولة البيضوية والكراسي الجلدية التي تتوسط الصالة الواسعة المهيبة، الدرج الالتفافي الذي يصل الطابق السفلي بالعلوي والدرابزين الذي نقشه النقاشون والبناؤون من بيت لحم.. أتقدم قليلًا إلى الأمام والتفت ذات اليمين وذات الشمال.. أمشي على طريق مرصوف وأزهار النرجس والسوسن والورد بألوانه وأشكاله يلامس وجهي وكأنه يودعني.. عناقيد العنب تتدلى وتمسح على رأسي وكأنها تواسيني وتقبل رأسي، سيارة المرسيدس موديل ال١٩٤٧ والتي اشتراها أبي من شركة توفيق غرغور تقف في الكراج، لقد كانت السيارة الوحيدة في القرية.. القرية التي لم تكن قرية بالفعل.. فهي أقل من مدينة وأكبر من قرية.. وبعض بيوتها يعلوها القرميد الأحمر!!

أذعن أبي لرأي وجهاء القرية وكان الأمر صاعقًا بالنسبة لي.. فقد كنتُ المحظية عند أبي ولم أفهم لماذا لم يتبادر لأبي حل آخر!! لماذا لم يفكر بأن هؤلاء الوجهاء يريدون إذلاله بتزويج ابنته لهذا العجوز.. يريدون كسر قلبه وتمريغ أنفه؟!!

في نهاية الأمر تمّ كل شيء كما خُطط له وأنا في غفلة عما ينتظرني.. لم أكن أعرف بالفاجعة إلا قبل وقوعها بليلة واحدة!!

جاءت أمي ترجوني أن لا أكسر كلمة أبي..

ماذا أصف وماذا أقول؟

هل هناك كلمة تتسع لهكذا مشهد؟! أم أنه لا فائدة من هذا الكلام الآن!!

أتدرون وأنا أستعيد الحكاية الآن يسقط قلبي مرتعشًا مرتعبًا على الورق.. أحمله وأعيده إلى صدري لأكمل.. يتعطل الكلام عند المصائب وتشتعل الحواس بما لا نستطيع منه فكاكًا!

خرجتُ من البيت ذاهلة، صافنة، غير مصدقة، ارتبط لساني تمامًا، كان الجميع ينظر ساهمًا وساكنًا عاجزًا عن التصديق.. كل شيء داخلي كان يرفس ويركل.. أمي وأبي ابتعدا عن المشهد، لم أرهما وأنا أخرج، سكن الرعب والذعر عيني وارتجف جسدي.. كل هذا يمر الآن أمام ناظري.. أراه ينبض من جديد!

لو كان اليهود هم الذين فعلوا هذه الفعلة لكان الأمر أهون عليّ!

نحن أعداء أنفسنا قبل أن نكون خصومًا لأعدائنا الحقيقيين!

ما حدث لي يشبه كثيرًا المذبحة التي حدثت بعد أيام قلائل في بلدتنا وبلدة دير ياسين..

في ليلة الرابع والعشرين من نيسان عام ١٩٤٨ تحول اليهود

الذين كانوا جيرانًا لنا آويناهم وأطعمناهم وأسكناهم في أرضنا إلى مجرمين.. يدخلون بيوتنا.. بيتًا بيتًا.. يضعون في كل بيت المتفجرات.. الانفجارات تتوالى واحدًا بعد الآخر والناس يهربون غير مصدقين!!

في بضع ساعات بدت القرية خاوية!! وهدمت بيوت القرية ومن بين البيوت قصرنا وبيوت أعمامي

رأيتهم بأم عيني يلقون بجثث القتلى في الآبار.. البعض هرب إلى المسجد الكبير في القرية لأنه لم يرد الخروج من القرية.. جاء ديفيد وهو جارنا الودود وأغلق عليهم الأبواب وألقى القنابل من النوافذ وعندما انتهت العملية.. دخلوا على من تبقى جريحًا وأجهزوا عليه في نفس اللحظة..

جيراننا اليهود الذين كانوا يسكنون أرضنا.. في لحظة تحولوا لمقاتلين شرسين!!

الأمر حدث وكأنه حلم..

وعندما انتبه الناس وتداركوا أمرهم وجمعوا شتاتهم.. حصلت معركة شرسة بين شباب القرية والعصابات اليهودية حيث طوقوا البلد من عدة محاور فجرًا ولكن الشباب تصدوا لهم.. انسحب اليهود مخلفين وراءهم عشرات الجثث.. كانوا مذهولين

من قدرة الشباب على مقاومتهم مع أنهم باغتوهم.. واستشهد أربعة شباب من شباب البلد.. كان أخي محمد معهم!

في يوم ١٩٤٨/٤/٢٥ بدأ الناس بالخروج من القرية.. كل على هواه دون ترتيب أو تنظيم.. يومها خرجت هاربة من بيت زوجي عندما سمعت بخبر استشهاد أخي محمد وأنا أخطو آخر خطوة نحو الباب قال لي:

ـ إن خرجتِ خطوة أخرى فأنت طالق.

ركضتُ مسرعة دون تفكير صوب أمي وأبي وكان الإنجليز يقفون على مداخل القرية ومخارجها يقدمون سياراتهم بالمجان لمن يريد الرحيل..

أتذكر لحظة دخول اليهود لقريتنا وكأنها طوفان.. جرف كل شئ أمامه وطمره لأسفل سافلين.. لن تتمكن من رؤية شيء إلا بالبحث والتنقيب كما يفعل علماء الآثار تمامًا عندما يجدون مدينة كاملة طُمرت تحت الأرض!!. صارت قرانا ومدننا مطمورة تحت الكذب والتزوير!!

لو فتحت أي باب من أبواب القرية لوجدت الطعام مازال طازجًا ساخنًا وكأنه لتوه قد نضج.. سترى الأطفال يلعبون.. سترى ألعابهم وملابسهم وكتبهم وألوانهم.. سترى تنكات الزيت

والزيتون والجبنة.. ستفتح الخابية فتجد العدس والبرغل وجرار العسل المصفى.. ستمر بالبحيرة لترى السمك الذي علق بالشباك.. سترى الزقاق وقد ازدحمت بسلال البرتقال والليمون ..

صدقنا أن الجيوش العربية سوف تدخل فلسطين وسيرسلون لنا سيارات لنعود إلى قريتنا فور انتصارهم.. خرجنا من بيوتنا إيمانًا وتصديقًا بأن الجيوش العربية ستحل المسألة قريبًا جدًا.. ولم نكن نعرف أن جيش الإنقاذ والجيوش العربية كلها تأتمر بأمر قادة إنجليز!!

لا أدري كيف خُدعنا وكيف انطلت الكذبة علينا!!

لم نكن نتوقع أن تطول الغيبة كل هذا الوقت.. اعتقدنا أننا سنخرج لساعات محدودة أو لأيام على أبعد تقدير، ولذلك ذهبنا لمنطقة قريبة من قريتنا اسمها (التوافيق) تقع على بداية هضبة الجولان، وهناك نصب أبي خيمتنا وعاد مع أعمامي ببواريدهم ليقاتلوا اليهود.

الرعب هو الذي أخرجنا.. فالعصابات الصهيونية مدربة ولها رأس يدبر كل أمر.. وكانت مأمورة بإخلاء الأرض من سكانها بكل الطرق بالذبح والبَقْر وزراعة الألغام وقصف الطائرات!!

في أيام ١٥ و١٦ و١٧ من شهر نيسان بقي الجيش السوري في

سمخ وجاءت الأوامر من قيادات الجيوش العربية بالانسحاب.. ثم أُعلن قيام (الدولة العبرية)

وبعد انسحاب الإنجليز وبترتيب مسبق مع اليهود والعرب أُعلنت الهدنة.. وبقيت سمخ فارغة ثلاثة أيام.. خرج أهلها منها واليهود خافوا أن يدخلوها..

لكن كان هناك من يتسلل للقرية ويأخذ حاجياته وثمار أشجاره ويعود سريعًا..

وبعد انتهاء الثلاثة أيام دخل اليهود القرية بمساعدة الإنجليز ولم يستطع أي منا الرجوع إليها بعد ذلك اليوم..

في (التوافيق) وبعد أن نصب أبي الخيام سمعت بتاجر كبير قالوا إنه فقد أمواله كلها وما بقي منها نصب بها خيامًا لأهله وأقاربه ووزع عليهم الطعام والشراب.. عندما رأيته استغربت من فعله؛ فهو شاب صغير ولكنه يحمل شهامة الشيوخ الكبار..

ما أن انتقلنا للشام بعدها بأشهر حتى نفد جل ماله.. هذا التاجر الشهم الكريم هو جدكم عبد الكريم ....

صوته لا يكف يناديني في كل ليلة!!

سأعود وإياكم لفلسطين.. سأعلمكم السباحة ونسبح في بحيرة طبريا كما وعدتكم.. سنركب القطار الذي كان يمر من

بلدتنا ونزور كل مدن فلسطين.. سأخيط لبيسان ولخزامى وليلى وشادية أثوابًا جميلة ليوم العودة.. سنعود.. سنعود..صدقوني أنا عائدة ...

***

وجدت بيسان هذه الرسالة تحت وسادة جدتها وقد تلونت بالدم الجاف .

# قد يعتاد المرء أحزانه
# كما يعتاد القنفذ أشواكه

«الحرب تجعلك بطلًا لمجرد أنك بقيت على قيد الحياة!! لكن المعركة الكبرى ليست هي المعركة الظاهرة من دمار وقذائف وقنابل وطائرات الميغ والباراميل المتفجرة والقناصة.. المعركة الصغرى هي الأصعب.. ماذا بقي منك بعد كل هذا الخراب؟!! معركتك مع ذاتك هي الأهم فأعظم الانتصارات هي التي تحققها في معركتك مع ذاتك.. أن لا تتشوه.. أن لا تحولك الحرب إلى مسخ مع أن أعضاءك يقيت كما هي لم يصلها أذى.. »

هكذا كانت تهجس بيسان.

عندما دخلت سارة المخيم نجحت في تمرير رسالة شفوية لمؤيد من زوجته.. التقت سارة ببيسان وأخبرتها بفحوى الرسالة الشفوية ..

قالت سارة:

ـ كان من المفترض أن ندخل أنا وأمك إلى المخيم معًا.. لكنهم أدخلوني ومنعوها.. وكأنهم يسخرون منا.. إنهم يتلذذون في تعذيبنا بكل الوسائل.. أدخلوني لأزور قبر علاء ومنعوا أمك من

الدخول حتى ترى زوجها وأطفالها.. يالللمفارقة المؤلمة!!

كانت تخمن أنهم لن يدخلوها؛ لذلك حملتني هذه الرسالة الشفوية فقد رتبت لكم أمر خروجكم قريبًا.. لا تقلقوا.. أمكم بخير وبصحة جيدة وهي تستطيع التنقل من مكان إلى آخر، تتألم أحيانًا من الشظية التي أصابتها واستقرت في ظهرها، لكن رحمة الله واسعة.. فهذه الشظية لا تعيقها عن الحركة والتنقل من مكان إلى آخر بهدف ترتيب خروجكم من المخيم..

حرصت سارة على نقل المعلومات دون تأتأة ولا اضطراب.. فهي لم تلتقِ بخزامى أبدًا ولم تقف معها عند مدخل المخيم فقد عرفت من شادية أنها هُرّبت إلى تركيا ..

***

تذكر بيسان بوضوح أشد لحظات الحصار، تستعيد لحظة إغلاق المخيم تمامًا على من فيه بينما كانت أمها خارج المخيم تشتري لهم الطعام.. في تلك اللحظة تكوم العالم فوق ظهرها وانحنت قامتها لتصير عجوزًا في عمر الثامنة عشر!

لم يغيرها الجوع والحصار والخوف والفزع بقدر ما غيرها غياب أمها.. غياب أمها جعلها ضعيفة وهشة حينًا وقوية حينًا آخر.. لكنه صاغ منها أمًّا حنونة على إخوتها وابنة حانية على أبيها

الذي قُصفت مكتبته واحترقت أمام عينه وجاء راكضًا إلى المنزل ليطمئن على الأطفال.. لا تبين ملامحه من الغبار الأبيض.. سقط قبل أن يصل إليهم ليكتشف بعد ذلك أنه فقد عينه اليمنى.. وأن نصفه السفلي لا يشعر به مطلقًا مع أنه ركض بادئ الأمر وكان كل شيء يبدو طبيعيًا!! لكن رصاصة في عظم الحوض أقعدت الأب..

عندما طرقت سارة الباب لتنقل لهم رسالة خزامى كان الأطفال يتحلقون حول أبيهم والذي كان من المفترض أن يكون في المشفى حينها.. ولكن المشفى لم يكن يعمل أصلًا.. فقد بدا خرابًا هو الآخر.

كانت بيسان ترتعش وتحبس أنفاسها المكروبة.. تنتظر أي طارق ليكون المنقذ لأبيها.. لكن المخيم صندوق الحكايات الموجعة كان صامتًا مترقبًا..

أنين مؤيد كان يصل لأسماع سارة في الخارج.. يتألم ويتأوه وكأن جسده حِمم بركان لا يهدأ !! تخرج سارة على عجل.. تبحث عن طبيب لكن الطبيب الوحيد في المخيم يشغله ما يشغل مئة طبيب.. ويبقى مؤيد يتأوه حينًا ويبتلع وجعه حينًا آخر!

يختارالله بيسان لتهدهد الوجع وتلملم الشعث وتطفئ الحريق وتحيك اليقين..

أيقظها صوت جدتها مهجة تهمس لها:

ـ جهزوا حالكم يا ستي.. رح تطلعوا من المخيم.. تلفتت حولها، استعاذت بالله من الشيطان الرجيم ثم عدلت جلستها ونظرت لسرير جدتها الفارغ. تفاءلت خيراً عندما طرقت الباب صديقة جدتها فردوس..

تطفو الآن حكاية فردوس.. تلك الحكاية التي حكتها الجدة مهجة مرارًا ، حكايتها وقت التهجير الأول..

«سمعتُ أصوات انفجارات هزت الأرض ودكتها دكًا.. كنتُ أجلس بصحبة رفيقتي فردوس التي هُرِعت إلى مكان الصوت لتجد زوجها وأطفالها يسبحون في بركة دم!!

في وسط الدماء كان يعلو صوت رضيعها.. حملته واحتضنته وهي تولول وفي ذات الوقت أخذت تحمد الله أن أبقى لها الرضيع.. ركضت صوب بيت أهلها لتجد أباها وأمها وإخوتها غارقين في دمائهم..

الجثث كانت تتكوم فوق بعضها البعض في ساحة البيت. امتلأت الساحة ليس بجثث أبيها وأمها وإخوتها فقط بل وبجثث أعمامها وزوجاتهم وزوجات أبنائهم وأولادهم كلهم.. وزوجات إخوتها زينب ونعمة اللتين كانتا حوامل.. قتلتا ثم أُجهز عليهما

بالسكاكين.. عرفت بعد ذلك أن جثة جندي صهيوني وُجدت أمام بيت العائلة فكان الانتقام!!

كل من في البيت كان غارقًا في دمائه إلا الحمار!! ركبته ووضعت طفلها الرضيع في الخُرج وسارت مشيًا على الأقدام حتى وصلت إلى منطقة فيها صخور فنامت من شدة التعب ولم تصحُ إلا على شروق الشمس لتُجن بعدما اكتشفت أن الحمار قد أخذ طريقه إلى جهة ما وعليه رضيعها»

تستحضر بيسان لقاء جدتها بفردوس التي جاءت في زيارة لأقاربها في المخيم وحُبست فيه .لقد دفنت وجهها طويلًا في صدر صديقتها واجهشت بالبكاء.. عندما أفرغت دموعها شعرت بالراحة وأكملت حديثها وكأن شيئًا لم يكن.. كانت تحكي بطريقة طبيعية جدًا.. غير أنها بين فينة وأخرى تُخرج صورة قديمة جدًا ومهترئة بالأبيض والأسود لأطفالها وزوجها وهي تتوسطهم بثوبها الفلاحي.

ماذا يفعل الموت بالأمهات يا ترى؟

إنه يجعلهم يحزمون أمتعتهم مع أطفالهم ولا يعودون أبدًا..

إنهم لا يستيقظون أبدًا.. يبقون قابعين خلف ثياب أطفالهم وضحكاتهم وصورهم وحكايتهم ورائحتهم.. إنهم يموتون

ميتات صغيرة كل يوم بانتظار الموت النهائي والأكبر. . .

عندما يموت الأطفال قبل أمهاتهم.. تنتهي الحكاية قبل أن تبدأ!! ولا يعود هناك حكاية سوى الصمت!

تتذكر ألوان الأثواب التي لبستها جدتها واحدًا فوق الآخر تحسبًا لأي طارئ أثناء الرحيل!! نفضت بيسان نفسها وقامت لتجهز حاجيات إخوتها وأبيها ولم تنسَ أن تقص خِرَقًا من الملابس القديمة حتى تنظف بها ما يخرج من أبيها من بول وبراز بعدما فقد القدرة تمامًا على التحكم!

مرت أيام طويلة حسبتها بيسان أشهرًا وهي تنتظر تحقيق نبوءة جدتها.. أخذ الناس يتناقلون أخبارًا مفادها أن هناك معاهدة تنص على إدخال المعونات والمساعدات الغذائية وإخراج الجرحى والمصابين بإصابات خطيرة.. هذه المبادرة كان يعمل على إنجاحها الهلال الأحمر والصليب الأحمر وجمعيات أخرى مسموح لها بالعمل بصفتها جمعيات إغاثية إنسانية.

في تلك الميمعة وبعد أن شبع المخيم موتًا وجوعًا ودمارًا.. بدا أن هناك انفراجًا وشيكًا!

أخذت تتأمل أباها.. لقد شاخ كثيرًا.. لقد كبر في كل يوم من أيام الحصار عشرة أعوام، جسده يخونه، تحت عينيه بالونان

منتفخان، عين ملآى ببقع حمراء داكنة والأخرى غدت بيضاء تمامًا لا يرى بها! لم يعد يحكي ولا يتوجع وكأن لا فصاحة تفوق فصاحة الألم! بدا الخوف والرعب مسيطرًا عليه.. إنها تفهمه جيدًا.. إنه يخاف على مصير أطفاله الأربعة وما سيحدث لهم إن لم يصمد على الأقل لحين الخروج من المخيم!

كل تنهيدة.. هي آخ مبطنة. كانت طريقة مؤيد في التعبير عن وجعه.. شهقة قصيرة يتبعها زفير طويل مشوب بالرعب.. لم يكن ينطق كلمات تُظهر عظيم ألمه وجراحه..

كان طوال الوقت مستسلمًا لما هو آتٍ.. بدا وجهه في الأيام الأخيرة أقرب إلى شيخ هرم.. غزا الشيب شعره في فترة وجيزة.. طال شعره وتدلى على جبهته ورقبته.. كان يعصره الألم عصرًا.. حتى بدا كحبة فاكهة ملقاة.. طال بها الأمد فبدت جافة ومكرمشة بعدما فقدت ماء الحياة.

قبل الخروج من المخيم حرصت بيسان على حلاقة شعر أبيها وبمساعدة أسامة حلقت ذقنه أيضًا.. غسلت له ملابسه جيدًا وعطرتها وألبسته القميص الأزرق الذي تحبه أمها.. أما ساقاه النحيلتان اللتان جفَّت فيهما روح الحياة فقد غطتهما بشرشف قطني أزرق بعدما انتهى أسامة من إحكام إغلاق أزرار بنطاله.

في اللحظات الأخيرة قبل الخروج من البيت.. كان مستسلمًا لأولاده.. لم يتذمر ولم يُطلق ولا تنهيدة واحدة ولا زفرة ولا أنّة؛ وكأن رؤية خزامى ستكون هي البلسم والدواء المنتظر..

كان جفن عينه اليسرى قد تدلَّى وغطى البؤبؤ الذي تحوّل إلى البياض تمامًا.

غادروا البيت، ألبست كل واحد من إخوتها بلوزتين وبنطالين تمامًا كما فعلت جدتها في التهجيرالقسري الأول!! وجعلت كل واحد منهما يحمل حقيبة صغيرة على ظهره.. أما أبوها فقد وضعوه في العربة المخصصة لشراء الخَضراوات والفواكه فقد كان لا يزيد وزنه عن الثلاثين كيلو!!

ومشوا.. ..

يأتيها صوت جدتها قويًا، يرِنُّ في أذنها كالطبل..

«خرجنا وحمل كل واحد منا بقجة ملابسه، جعلتنا أمي نرتدي ثيابًا فوق ثيابنا مع أن الدنيا عز الصيف»

أغلقوا الدار بمفتاح صغير.. تمامًا كما فعلت جدتها قبل ٧٠ عامًا عندما أغلقت الباب بمفتاح حديدي كبير كانت تنتبه لشكله وحجمه لأول مرة فهم لم يعتادوا على إغلاق دورهم وأبواب بيوتهم أصلًا..

في الطريق وقع بصر بيسان على بيت جارتهم زينة.. تُحوّل نظرها عنها.. رجفة تسري في جسدها وهي تراها واقفة على الشباك وكأن الحادثة تقع الآن.. تصرخ بشكل هستيري على الرجال المسلحين الذين يجرون زوجها كذبيحة، يركلونه بأقدامهم، تصرخ فيما جنينها يركل بطنها فلم يبقَ سوى أيام على ولادتها..

ـ ليش أخذتوه؟!! مانو عامل شي!! مالُه ذنب.. والله موعامل شي.. الله لا يوفقوا..

هدَّدها المُسلَّح قائلًا:

ـ إذا ما دخلتي جوا رح أطخك.

ازداد صراخها وعلا بشكل هستيري بعدما رأت الدم يتدفق من فم زوجها، لم تتوقف عن النحيب والصراخ، لم تغلق الشباك وتدخل كما أمرها المسلح.. فقنصها المسلح هي وجنينها.. أما زوجها الذي فرّ منهم صوبها فقد عاجلوه برصاصات ست.

أمامهم تمشي سلوى وزوجها وابنتها من زوجها الأول. زوجها الأول اختفى فجأة ولم يظهر له أثر وعاشت وحدها مع صغيرتها ما يزيد على السنتين ثم تزوجت من أول طارق يطرق بابها وبعد عدة أشهر عاد زوجها المختفي وكانت الصدمة في كل المخيم!!

يا ترى ماذا ستفعل سلوى؟

هل ستعود لزوجها القديم؟ أم ستبقى مع زوجها الجديد؟

لكنها حسمت أمرها وبقيت مع زوجها الحالي.

مشوا جميعًا في طابور واحد طويل.. الناس كانت تتابعهم وتنظر إليهم بدهشة واستغراب فلا أحد يملك المال ليخرج من المخيم..

سمعتهم يرددون:

«ما حدا معه يدفع ويطلع.. كيف دبروا حالهم؟ من وين جابوا؟»

مشوا وراء بعضهم البعض في خط مستقيم وعندما وصلوا إلى حاجز البطيخة تمّ تقسيمهم إلى مجموعتين.. بيسان والجارة وابنتها في مجموعة والأب وأسامة ويحيى وعز الدين وزوج سلوى في مجموعة أخرى..

على حاجز البطيخة انتظروا طويلًا.. مرت الساعات ثقيلة دبقة وبدأت الأسئلة تنهش رأس بيسان.. هل سيخرجون فعلًا؟!

كيف سنتقيأ كل هذا الوجع والقهر؟

أيمكن أن يحدث هذا فعلًا؟ أن تتقيأ ذاكرتك المحملة

بالأحداث والمشاعر والأحاسيس التي لا نستطيع لها تفسيرًا.. أيمكن أن تركلها وتتخلص من حملها الثقيل.. فتعود خفيفًا رائقًا كنبع ماء؟!

أصعب ما يمكن أن يحدث للإنسان هو أن يتقيأ كل أحزانه دفعة واحدة؛ فكل شيء تقذفه دفعة واحدة سيتشكل نتفًا مرة ثانية وبصورة مقززة ورائحة منفرة تمامًا كما القيء!

بعد انتظار ثلاث ساعات ومع وجود أناس كثر على الحاجز.. أخذ أحدهم يلوِّح لهم من بعيد.. اقترب منهم وقال لهم:

ـ تفضلوا معي.

مشوا وراءه.. هاهم يخرجون من المخيم.. يخرجون من الجحيم.. لكن لا شيء يغادر رؤوسهم.. أصوات القنابل والقذائف والبراميل المتفجرة ما زالت تملأ أسماعهم بطنين لا يهدأ..

لقد اعتادوا أصوات القذائف.. وما عادت تهتز لهم شعرة.. مع الوقت يعتاد المرء حزنه وألمه كما يعتاد القنفذ أشواكه..

ومع الوقت صاروا يعرفون وجهة طيارة الميغ وأين ستُنزل حمولتها.. وإن أرادت تنزيل برميل صاروا يستطيعون تحديد مكان الإنزال بدقة وذلك عن طريق معرفتهم (بمدى الصوت) وكانوا

يعرفون ويقدرون تمامًا مكان نزول القذيفة من قوة صوتها!

على حاجز البطيخة كان هناك تفتيش لعناصر النظام.. الرجال فتشوا الأب والأولاد وزوج الجارة سلوى والشرطية فتشت بيسان والجارة.

وما كادوا ينتهون من حاجز النظام حتى وصلوا لحاجز الصليب الأحمر..

فتشت الشرطية بيسان والبقية.. لكنها فتشت بيسان تفتيشًا دقيقًا.. نبشت جيوب بنطالها ووجدت ما يقارب المئتي ليرة سورية أي ما يعادل خمسة دولارات، فقد قام الأب بتوزيع المبلغ المتبقي معه على أولاده الأربعة.. وكانت حصة كل واحد منهم مئتي ليرة سورية.

الشرطية كانت تنظر لبيسان برعب وكأنها تقول في نفسها «أيعقل أن تكون هذه بشر» الجوع والتعب والإرهاق، عظام الوجه البارزة، العيون الغائرة والجاحظة، الجفون المتهدلة من شرب الماء والملح.. لقد مضى عليها ثمانية أشهر لا تشرب ولا تأكل إلا شوربة الماء المالحة.

أمسكت الشرطية بالمئتي ليرة وقالت لبيسان:

ـ هدول ما بينحطوا هون في الجيبة.. هدول بينحطوا في

الشنتة. وكأنها تقول لها «ضعي نقودك في أعمق نقطة غير مرئية في الحقيبة؛ لأن المسلحين على الحاجز الآخر إذا أرادوا هذا المبلغ يمكن أن يحدث ما لا تُحمد عقباه.

نظرت بيسان مليًا إلى الشرطية وتساءلت بصمت: «كيف تصعد الإنسانية فجأة في قلب متحجر»؟!

أخذت بيسان المبلغ بسرعة ووضعته كما أشارت عليها الشرطية..

أمتار قليلة تفصلهم عن حاجز لحزب الله.. قبل أن يصلوا للحاجز أوقفهم رجل مسلح.. كان بينه وبينهم ما يقارب العشرة أمتار.. نظر إلى بيسان ورمى لها ربطة خبز وهي التي لم ترَ الخبز من ثمانية أشهر..

ربطة الخبز استقرت أمام أقدامها.. نظرت بيسان لأبيها الموجوع.. لربطة الخبز.. للرجل المسلح وتحجر الدمع في عينيها.

سألها:

ـ قديش الكم ما أكلتوا هذا الشي؟ وأشار بقدمه إلى ربطة الخبز..

سكتت..

قال:

ـ ايه ياعمي.. الله يحرم إلي حرمكم!

نظرت إليه وأنفاسها تعلو وتهبط من الإعياء والجوع.. كتمت صوتها المرتجف الذي يقول: «مو انتو يلي حرمتونا وعذبتونا وحاصرتونا.. مو انتو يلي تعاونتو مع النظام والفصائل الأخرى لحتى تجففوا الدم إلي بعروقنا»!!

أمسكت بيسان بربطة الخبز.. كانت مجبرة على إمساكها والسير بها للأمام دون أن تلتفت للخلف؛ فقد كانت بارودة المسلح تناهز طوله ومصوبة نحوها.. كان طويلًا وضخمًا.. مخيفًا.. مريبًا.. كانت بيسان أمامه بحجم كفه..

أمسكت بيسان ربطة الخبز.. مشت للحاجز الأخير وهي تجر العربة بوالدها وخلفها إخوتها.. عند حاجز حزب الله بدأوا بتفتيش الحقائب التي بحوزتهم.. فتح المسلح الحقيبة وبدأ بتفتيشها وعندما وصل للملابس الداخلية، غمز بيسان بطرف عينه ونظر إليها نظرة وقحة وخبيثة.. ثم عاد وأخذ يقلب الملابس الداخلية بيده مرة أخرى ثم نظر نظرة فيها تهديد ووعيد.. ثم عاد وأغلق الحقيبة وأمسك بارودته وصار يحركها على ظهره وكأنه يقول:

ـ شي يا.. أنا تركتك بخاطري.. وفي أي لحظة ممكن أتراجع وآخدك!!

كان يبحث في وجهها عن أي ردة فعل تسوِّغ له عملًا شائنًا.. لكن رباطة جأش بيسان جعلته يتراجع..

غضب وقهر وذل تتنفسه بيسان في اللحظات الأخيرة على هذا الحاجز.. تحشرج الدمع في حلقها وخنقها.. .دفعت السلة التي يرقد فيها والدها كومة من لحم وعظم للأمام.. وقفت بالقرب من السلة.. قرفصت بينما يداها تمسكان بالسلة؛ فركبتاها تخوناها ولا تستطيع الوقوف أكثر..

شفتاها تتحول إلى اللون الأزرق الداكن وهما ترتجفان ويتجمد فيهما الدم والكلام.. تنظر إلى أبيها.. ثم يتجول بصرها في المكان.. تبحث عن وجه أمها.. فقد وعدتهم برسالتها أنها ستلقاهم عند بوابة المخيم!!

عيناها تدور في محجرهما بلا تعبير.. فقد بلغ القلق مداه.. فلا أثر لأمها!! وبدأت الشكوك والمخاوف تراودها!

يا ترى ماذا حدث لها؟

لماذا لم تأتِ؟

ماذا سنفعل بدونها؟

سامحيني يا بابا.. أنا تعبتك كثير..

ابتسم ابتسامة مريحة وهادئة.. صفحة وجهه بدت ملساء

وناعمة لا انقباضات فيها.. يبدو اليوم في صورته الأجمل.. إنه يرى طيف خزامى.. خزامى التي تسربت من بين يديه كما حبات الرمل بهدوء ودون أن يشعر..

في هذه اللحظة تشهق بيسان فرحة لوجه أبيها المتورد.. تمسك بيده وتشد عليها بكل ما أوتيت من قوة.. يستسلم لها.. شفتاه ترتعشان بكلمات كثيرة تتسابق أن تخرج.. كلمات كان يخبئها ليوم اللقاء..

لن يسألها لمَ تركته نهبًا للخوف والقلق والفزع..

تُهمهم هي أيضًا بكلمات كثيرة.. لن تجيبه عن سؤاله.. أين كانت! فالإجابة مؤلمة جدًا لن يحتملها ولا تريد أن تزيد ألمه وجراحه!

ينظر إليها.. ترفع رأسها وبعينين تقطران دمعًا.. تعطيه الرواية الأولى التي كانت سببًا في ميلاد حبهما..

يقول لها العبارة الأولى التي قالها لها عندما سلمها الرواية:

«وكأن الكتاب الأول الذي تلمسه روحك يشبه الحب الأول.. يبقى صدى كلماته ورائحة حروفه وملمس أوراقه في الذاكرة مهما بعُد الزمن»

وتجيبه:

«الكتاب الأول هو الذي يضيء روحك فلا تعود كما كنت أبدًا.. قد يكون هذا هو الكتاب العاشر في التعداد.. لكنه الأول الذي يجعلك تحلق»

تلملم بيسان بريق عينيه وهو يردد تلك الجملة «وكأن الكتاب الأول الذي تلمسه روحك.. .إلخ»

ثم سرعان ما يخبو البريق وتجحظ عينه السليمة إلى أعلى..

تمسك بيسان بيد أبيها.. تهزه هزًا عنيفًا.. تقبل باطن كفه وظاهرها.. تمسح خدها بخده.. تفقد ركبتاها كل القوة فتبرك على الأرض ولا تستطيع الوقوف..

إخوتها الصغار يرتجفون ويتحلقون حولها..

عقلها يُشرّق ويُغرّب..

لا تعود للوراء.. إنما تفكر بقادم الأيام بدون أب ولا أم.. أزيز الأفكار المرعبة يحلق فوق رأسها كما طائرات الميغ وكما البراميل المتفجرة..

الأفكار السوداء تنشرها بمنشار يفتتها إرْبًا إرْبًا.. أنين الصغار يعلو ويعلو.. ثم يخفت ويسكن تمامًا مع رنين الهاتف.

## ميتة منذ زمن..
## لكن لاتعرف موعد دفنها

حين خرجوا من المخيم أخذ جوال الأب يرنّ ويرنّ، أسامة ويحيى وعز يتكورون تحت أقدام أبيهم الباردة، بيسان تمسك بيد أبيها وتضعها على خدها ثم تقبلها وتئن كما تئن قطة جريحة..

وكعصافير وقعت في فخ.. أخذ الأولاد يرتعشون ويتلمسون وجه أبيهم.. يتوسلون إليه أن لا يغادر ويتركهم..

يصرخ عز:

ـ بابا افتح عيونك.. منشان الله افتح بس شوي..

طب قول لنا شو نسوي.. وين نروح؟

الهاتف يواصل الرنين، تتحسس بيسان جيوب والدها، تبحث عن الجوال أو بالأحرى تبحث عن أمها التي لم تأتِ لاستقبالهم رغم مضي خمس ساعات على خروجهم من المخيم.. المهرب يحاول التملص فمهمته انتهت هنا.

عثرت بيسان على الهاتف، فتحته، كانت عمتها شادية تريد الاطمئنان على سلامتهم وخروجهم من المخيم..

شادية تنادي على مؤيد:

ـ أبو أسامة.. مؤيد.. وينك يا أخي.. ليش ماعم بترد؟؟

انعقد لسان بيسان، لم تستطع الكلام فقد كان ينبعث من فمها بخار كلمات غير مفهومة، أخذ المهرب الهاتف وكأنما يريد أن يتخلص من الورطة التي وقع فيها وقال بلهجة تريد أن تنهي كل شيء:

ـ البقية بحياتك خيتا!!

انفجر صوت العمة كشريان مثقل بالوجع، أغلق المهرب الهاتف، أراد أن يتخلص من هذا الحِمل الثقيل وخرج الإنسان لوهلة منه.. فأخذ الأولاد بسيارة أجرة مع والدهم الميت ليوصلهم إلى بيت عمتهم في صحنايا.

غمامة تغطي عيون بيسان.. إنها تكاد لا ترى شيئًا وكأنها تفقد بصرها لوهلة ثم يعود إليها، الدمع الثقيل يمسح الغباش.. تحضنهم العمة شادية وكأنها تشتَمُّ رائحة الحياة من جديد.. تركع بجانب أخيها الذي نال منه الجوع فلم يبقِ ولم يذَر.. ثم أكملت الرصاصة التي استقرت في حوضه ما تبقى من هذا الجسد.. يمتلئ البيت بالنشيج والعويل فالحزن لايتخدر ..لا يتجمد ولا يتلاشى !!..

لقد مات مؤيد.. ولقد ماتت فعليًا قبله عند موت زوجها وولديها.. هاهي اليوم تموت مرة أخرى.. إنها ميتة منذ زمن.. لكن لا تعلم متى يحين موعد دفنها.

تبكي العمة وحولها الأطفال يشهقون صامتين.. وأحيانًا يصرخون وكأن شبحًا يطاردهم، يحيى الصغير ازداد وضعه سوءًا، كان وجهه يزرَقُّ ويشرق بروحه من كثرة البكاء.. عزالدين لا يأكل وأحيانًا تصيبه نوبات رفس وركل ويتقلب على الأرض ولا أحد يستطيع إمساك الجسد النحيل المتصلب.. أسامة يراقب بصمت وبيسان ترتجف وتحضن إخوتها، تصارع الرعب الذي يزداد يومًا بعد يوم داخلها.. الأحداث المتلاحقة لا تجد لها تفسيرًا.. يتحرك القدَر بطريقة غير مفهومة خارجة عن المنطق والعقل.. فكيف أصبحوا بين ليلة وضحاها بلا أم ولا أب؟؟

أم أن النجاة من العتمة ستكون في العتمة ذاتها؟!!

يختار الله هؤلاء الأطفال ليحيكوا حكاية الصبر والخروج من التيه..

يربط الله على قلب بيسان المشتعل ويطفئ اللهيب ويلقي الله على قلبها السلام لتصبح أيقونة.. لقد زُرعت هنا في المخيم لتكون الكلمة الأولى في نهاية الطاغية...

العمة شادية وكأنها كومة قش مشتعل.. تتساقط دموعها قهرًا وهلعًا.. دموعها ليست دموع الحزن الواحد.. فكل دمعة تسقط تجرف في طريقها الحزن القديم والجديد.. هذه الدموع تغسل وتعري كل فجيعة وتستعد لموجة جديدة من الأحزان التي لا تنضب.

ضمتهم العمة وأسبغت عليهم شوقها وحبها، اطمأنوا لوجودها معهم وتدفق مشاعرها.. تلك المشاعر التي تجمدت بعد أن فقدت شادية ولديها الاثنين في المظاهرات التي رتب لها النظام مع القيادة العامة في الجولان في ذكرى النكبة.. أخذوهم بالحافلات للجولان.. رشقوا الصهاينة بالحجارة.. الصهاينة خرجوا بدباباتهم وناقلات جندهم وعرباتهم المصفحة في مواجهة هؤلاء الفتية.. يرشقونهم بالحجارة ويردون عليهم بصليات الرصاص: ليكتشف المتظاهرون أن الأمر مدبر!! وأن ما جرى هو تلميع صورة النظام الممانع الذي بقي لمدة سبعين سنة ولم يطلق طلقة واحدة صوب الاحتلال.. وفي نفس الوقت الانتقام من الفلسطيني بمزيد من القتل!!

بعد استشهاد ولديها كادت تفقد عقلها.. فقد فقدت ولدين في نفس اليوم واللحظة وقبل ذلك بشهور فقدت أباهم.. كان الأمر عصيًا على الاحتمال.. لكن الله يتكفل بالمفجوعين.. يلملم شتاتهم ويرمم تصدعهم..

موت الأبناء اشتعال لا يقوى بحرٌ على إطفائه في قلب أم مكلومة.. إنه انهيارات متتالية..

تنكسر الأم كجذع شجرة فلا هي مع الأحياء فتورق وتزهر ولا هي مع الأموات فتجف وتيبس

يبقى الهلع والشوق مرسومًا على الأهداب، ويصبح الليل ميعادها معهم.. تنتظرهم وتحتمي بصورهم وحكاياهم.. لتحمي نفسها من برد الفقد ونار الشوق.

تضع صورهم على كراسي طاولة السفرة، تعد الفطور لهم كل يوم، تطبخ لهم وتغسل ملابسهم وتنشرها وتكويها، تحكي لهم عن يومها وماذا حدث، تحكي لهم عن زوجة خالهم (خزامى) التي باعت كل ذهبها والذي كانت تخبئه عند أختها في الشام حتى ترتب لخروج أولادها وزوجها من مخيم اليرموك.. إلى تركيا.. تحكي لهم عن أبيهم الرسام والمصور الذي قدم روحه قربانًا للتحرير..

أحيانًا تستبدل حزنها بالغناء لهم.. تغني مواويل وميجنا فلسطينية..

يا زريف الطول وقف تقولك..

رايح ع الغربة وبلادك أحسن لك

خايف يا زريف تروح وتتملك..

وتعاشر الغير وتنساني أنا..

تقوم وتدبك وكأنها في يوم عرسهم.. يغلبها البكاء فتهدأ ويتحسن مزاجها وكأن الوجع ينقشع ويخف مع البكاء، بعد البكاء تعود وكأن شيئًا لم يكن.. تخرج من كهفها الحزين لحياتها وكأن ما تفعله ينتشلها من الجحيم فتعود رائقة وهادئة تظلل على من تبقى من الأبناء..

جيران العمة وأهل الحي هُرِعوا إليها يعزونها في فقيدها الجديد (أخيها) يتفقدون وجعها الذي لم يبرأ وجرحها الجديد الذي نكأ القديم.

تجمع الأهل والأقارب.. الرجال في الخارج والنساء في الداخل..

عندما جاؤوا بالجثمان وقفت العمة كقنديل يشتد نوره في اللحظات الأولى قبل الانطفاء.. حتى في اللحظات الأخيرة يبقى اللهب يتراقص ويحاول أن يتطاول ويشتد وهكذا كانت العمة.. وقفت عند جثمان أخيها، ضمت أولاده، وقفت كسد منيع تجاه الحزن، لم تسمح للوجع أن يتطاول ويتضاعف!

تقول العمة:

في هذا الجحيم تتوثق علاقتي بأمك يا بيسان.. تتنقل بين بيتي وبيت أختها.. تأتيني وتشد أزري بعدما فقدت أولادي وأنا التي هربت بهم من جحيم المخيم بعد استشهاد والدهم!

تستشيرني في كل صغيرة وكبيرة، تتحملني عندما أخالفها الرأي وتذهب يوميًا وتقف عند بوابة المخيم مع سارة.. وقبل مجيء سارة كنت أذهب معها يوميًا إلى هناك.. وعندما عرفت سارة باستشهاد خطيبها وأصرت على الدخول.. أصرت أمكم على الدخول معها لكنهم منعوها وأدخلوا سارة.. دفعت الكثير الكثير لقوات النظام والقيادة العامة الموالية للنظام لكنهم خدعوها الملاعين..

رتبت أمكم مع سارة الدخول للمخيم وكادت تُجن عندما أدخلوا سارة ومنعوها.. لم تيأس.. راسلت إخلاص صديقتها في ألمانيا.. قدمت لسفارات السويد والنرويج وألمانيا طلبات هجرة.. لم يردّ أحد، وعندما هاجر أخوها للنرويج ونجح في الوصول عن طريق المهربين لمعت الفكرة في رأسها وبدأت بالعمل لها.. قال لها خالك بديع: «سأدبر لك كل ما تحتاجينه من مال.. لا تقلقي أبدًا من هذه الناحية.. وعندما تصلون إلى هناك ستحصلون على سكن ومعونة مالية وستتحسن أموركم كثيرًا»

كان حديث العمة شادية مع بيسان أشبه بلملمة أوراق الشجر المتناثرة بعد عاصفة هوجاء!!

لم يكن هناك كلمة واحدة صحيحة فيما قالته.. كانت تجفف عرقها المتصبب وهي تحكي.. وتحاول أن تحبك الحكاية بإتقان حتى لا تشك بيسان بالأمر..

الشيء الوحيد الذي كانت تعرفه شادية أن خزامى هربت لتركيا بعد أن نجح أحدهم في تهريبها من السجن.. وهي الآن في انتظار أطفالها هناك.. وأنها اتفقت مع أخيها بديع على تدبير أمر الهجرة للنرويج.

أكملت:

حذرتُها كثيرًا؛ فالصور التي نراها على التلفاز للغرقى.. للرعب المرتسم على الوجوه الناجية في القوارب.. يشتمونهم ويركلونهم ويهددونهم بإلقائهم بالبحر إن حاولوا الاعتراض..

لكن أمكم صممت وقالت:

ـ أخي بديع سيرتب لنا الأمر مع المهرب الذي قام بتهريبه.. لا تقلقي يا شادية.. فعندما تغلق كل الأبواب أمامك قد يكون باب جهنم هو النجاة !!

حاولت العمة أن تستبقي بيسان وإخوتها عندها وأن ينسوا

أمر الهجرة التي دبرتها أمهم لكن بيسان ظلت صامتة تنتظر اتصال والدتها..

اتصلت الأم بعد أسبوع، قالت إنها رتبت كل شيء مع خالهم بديع وأنها تنتظرهم عند الحدود التركية والمبلغ الذي تحتاجه للرحله أرسله الخال.

أعطني أباك لأكلمه..

صمتت بيسان وقطعت الخط.

تأخذهم العمة لتشتري لهم الحاجيات والأغراض التي يحتاجونها للسفر.. الحاجز الموجود أسفل البيت طلبوا تسجيل أسماء الأولاد الأربعة على الحاجز ليعرف النظام أن الأولاد يعيشون عند العمة فيسهل عملية الدخول والخروج.

ذات مرة وهم يركبون الميكروباص.. أوقفهم حاجز وطلب منهم الهويات.. كان هناك شاب صغير لم يتجاوز الثامنة عشر يرتجف ويرتعد خوفًا.. قبل أن يصلوا إليه سألوه عدة أسئلة وتبين أن هذا الشاب وحيد لأمه وأبيه وهرب من العسكرية لكن النظام في حالة حرب ويأخذ كل شاب حتى لو كان وحيدًا لأهله!

أخرج الشاب الورقة التي تثبت أنه وحيد لأمه وأبيه وصرخ:

ـ يا جماعة.. دخيل الله.. أمي بتموت لو تاخدوني.. مالها

غيري.. لا بنت ولا ولد.

أخذت العمة تتوسل لهم أن يتركوه.. قالت للشبيحة: «أنا بدفع لكم يلي بدكم ياه بس اتركوه لأمه.. ما بعرف الحرقة إلي بقلب الأم إلا إلي جربها.. دخيلكن اتركوه»

ركلوها بأعقاب بنادقهم.. سال الدم من فمها.. أنزلوه من الميكروباص وأخذوه إلى جهة مجهولة بينما كل الركاب في الباص يتابعون المشهد بين توسلات وشهقات وارتجاف ودعوات أن لا يكون هذا المشهد هو خاتمة الصبي.

عند الخروج من المخيم.. عرفت بيسان وإخوتها معاني ومصطلحات لم تكن تعرفها.. عرفت كنه جيش النظام، الجبهة الشعبية، القيادة العامة الفلسطينية المتواطئة مع النظام، حزب الله، داعش، الجيش الحر..

عرفت بأن من ينشغل بإشعال النار في خيمة أخيه لن ينجو من النار التي أشعلها.. ولن يستدل على طريق فلسطين إلا من تيقن أن المعركة الحقيقية هي معركة القدس وأن النار لا تُشعل إلا في خيم الأعداء..

عرفت أن المحنة وطول البلاء يكشف المستور ويميز الخبيث من الطيب والقمح من الزؤان.. هذه المحنة كشفت الوجوه..

رفعت أقوامًا وأسقطت آخرين.. ذابت مساحيق التجميل عن الوجوه اللامعة البراقة التي ظلت تصدِّع رؤوسنا بالممانعة ليظهر الوجه الحقيقي الذي يخفونه منذ عشرات السنين..

عرفت بيسان أن مثل هؤلاء لا رهان عليهم.. إنهم لا يساوون شيئًا في الميزان.. إنهم المرجِفون.. المثبِّطون..

هذه الأنظمة لا تملك قرارها.. ولذلك فهي لا تملك مفاتيح القدس.. ومن صدح ب (إنّا لن ندخلها) كان مصيره التيه!

هذه الوجوه التي تحمل ذات ملامحنا.. وتسجد لقبلتنا وتتلو مثلنا آي القرآن.. كانت تزرع بالأمس خنجرًا في الظهر.. وغدا الآن في الصدر!

والغلة التي كنا نراهن عليها أكلها السوس وظهرت حقيقتها..

انتهى الأسبوع وتم ترتيب أمر الخروج من منزل العمة بناء على اتفاق مع أخوال بيسان ومهرب اسمه (أبو عبدالله)

في الليل بكت بيسان كثيرًا.. بكت لا لأنها لا تريد الخروج واللحاق بأمها والخلاص من هذا الرعب ولا حزنًا على أبيها الذي ستتركه في قبر وحيد.. بكت لأن كل الذكريات طفت فجأة على السطح.. لقد تركت المشاهد والمشاعر تمشي في الذاكرة كخط

نمل.. قررت أن تترك كل شيء يخرج.. لا تمنعه ولا توقفه..

الهلع، الظلمة، الحريق، التناثر، الارتجاف والتصدع والانهيار، القيامة التي تقوم في نفسك، النحيب، القهر،.. لم تحاول أن تقاوم أي شيء.. تركتهم يعبرون بسلام.. لقد شعرت أن هذا أفضل طريقة للتعافي.. أن لا تكبح أي ذكرى.. دعها تخرج بسلاسة حتى لا تفقد إيمانك وذاتك.

تحضر مشاهد الجثث المتفسخة على جنبات الطريق والتي لم تجد أحدًا ليدفنها.. تحمد الله أن أباها قد استشهد خارج المخيم وتم دفنه بكرامة.. كم كانت تخاف هذا المصير وكم كانت تخاف من مشهد التراب الذي ينهال على أجساد الأحباب.. لكنها عندما رأت مشاهد الجثث المتفسخة وقد نهشها الذباب وأكل أطرافها الجرذان.. أدركت رحمة الله بدفن الأموات.. حتى تبقى صورتهم بهية في الأذهان.

ياه ما أرحم السماء عندما تتلقف الروح الطاهرة.. تكفنها.. ترشها بالمسك وتحملها إلى أعلى عليين.. ويُترك الجسد ملقى في الأرض؛

فالحياة القادمة لا تستدعي وجود الجسد.. إنها تحتاج الروح فقط!!

حمدت الله أن حظي والدها بقبر لائق.. آخر مشهد رأته فيه كان ممددًا بكفن أبيض.. هادئ وصامت كعادته.. نزلت دمعة من طرف عينه.. صرخت في الجموع: «بابا حي يا ناس.. بابا عايش.. تعالوا شوفوا.. فتح طرف عينه واطّلع فيّ.. هو قاعد بيسمعني.. أنا متأكدة إنه بيسمعني.. كان بيبتسم»

جلست على ركبتها عند رأسه.. تقرأ عليه آيات القرآن.. لكنهم أمسكوها وأخرجوها من الغرفة..

***

في الصباح وقبل بزوغ الشمس.. جاء أبو عبدالله.. وقف الأولاد الثلاثة وأختهم بيسان على باب البناية ونظر أبو عبدالله إلى بيسان وقال لها:

ـ إنتي مرتي.. وأنا زوجك.. وشدد على الأحرف.. وبهذه الطريقة سنَنْفذ من كل الحواجز..

المهرب أبو عبدالله كان قد رتب أموره مع جيش النظام ومع الجيش الحر ومع حزب الله وحتى لا يشعروا أنه مهرِّب اخترع قصة أن بيسان زوجته!

أعطى بيسان هويته وجعلها تحفظ كل معلوماته.. اسمه كاملًا

واسم وأبيه وتاريخ ميلاده وكل المعلومات التي قد تُسأل عنها في حال تمّ ضبطها..

ثم همس لها:

ـ إذا تمّ استجوابنا ستقولين التالي: «بعد ما توفت إمي وأبي رح ياخدني أبو عبدالله مع إخواتي علشان نعمل العرس بحلب ونستقر هنيك»

قبل أن تصعد بيسان إلى الحافلة.. تنظر نظرة أخيرة للوراء.. فما زال في ياسمين الشام عطر يكفيها للقادم من الأيام..

إنها النظرة الأخيرة للشام.. لمخيم اليرموك.. إلى الأشباح والأصنام والكوابيس والتوابيت والخراب والركام.. تسيل دمعة أخيرة عاشقة لن تسعها الشام!

ما لم تعشه في التهجير القسري الأول هاهي تعيشه بعد سبعين وجعًا.. تعيشه حارًّا يلسعها كالنار؛ فالتاريخ لا يقفل أزراره.. إنه يعود مرة تلو الأخرى وبنفس الوجه!!

مازالت تنهيدة جدتها وآهة أمها وأبيها وهم يتحدثون عن التيه الأول تشتعل في صدرها..

لم تكن الجدة مهجة تتخيل أن التيه سيتسع ويتكرر!!

في أحيان كثيرة وعندما كانت الجدة تسترسل في الحديث عن

البلد وبحيرة طبريا ولحظة الترحيل كانت تود لو سألتها:

«لماذا خرجتم»؟

«لو بقيتم رغم كل ما حدث لكان أفضل »

«لو تحملتم ما صرنا لاجئين «

«رح نظل لاجئين لولد الولد»

«لو أنكم متم لكان الموت أرحم من اللجوء.. لقد صرنا لاجئين تُسد الأبواب في وجوهنا ونُعامل كحثالة، منشورين كملابس رثة مهترئة على حبال غسيل في كل أنحاء العالم، فلا جنسية ولا جواز سفر ولا قيمة لنا، ، الكل ينظر لنا نظرة ازدراء»

وكانت تقف الأسئلة في حلق بيسان، تستعصي أن تخرج.. وعرفت الإجابة على كل تلك الأسئلة في يوم الخروج من المخيم!

تتمتم بيسان بصوت غير مسموع وهي تصعد درجات الحافلة:

«الموت يا ستي صار أبشع وأكثر إيلامًا.. التاريخ تبرأ من الصور القديمة واستبدلها بصور جديدة أكثر رعبًا ووحشية.. لم تعد حكايا المغول والتتار آخر الذبح والحرق.. لم أكن أستطيع تخيل جهنم.. أعتقد أنني الآن قادرة على ذلك!

مخيم اليرموك هو الشكل الأكثر شبهًا بالجحيم.. والسيوف التي أمضت عمرها في الأغماد هاهي تُستل لحماية عروش الطغاة وقلع زهور الربيع..

كثُر الطغاة والأعلام والرايات وصار هناك ألف حجاج وثقفي.. خرج مسيلمة من جديد فلا أبو بكر يردعه.. خرج الدجال يا ستي قبل موعده والعبيد تكاثروا وتصالحوا مع القيود..»

تمسك بيسان بيد إخوتها الصغار عزالدين ويحيى.. فيما أسامة يتقدمهم.. تتكرر مخاوفها وهواجسها..

ـ هل ورطت نفسي وإخوتي؟

كيف أصعد الحافلة مع شخص غريب؟ كيف وثقت به أمي؟

كيف سمحت عمتي شادية بذلك؟

آخ يا أمي.. الذهاب للمجهول أشد عقوبة من الموت.. مخيف ومرعب ما يحدث..

تجلس على المقعد المخصص وتتابع..

– لا فائدة من كل هذه الهواجس.. قضي الأمر الذي نستفتي فيه أنفسنا.. لم يبقَ إلا دقائق وتنطلق الحافلة إلى المجهول..

تراقب الوجوه في الحافلة.. تجلس بجانب أبي عبدالله كما أوصاها بذلك.. تتأمل نفسها صبية في الثامنة عشر من عمرها وعجوزًا ناهزت المائة في مصيبتها.. يعج رأسها بآلاف الحكايا والمشاهد.. حكايا ممتدة من الجرح الفلسطيني الأول.. إلى النزيف السوري..

الشباب يتوافدون للسلام على أبي عبدالله.. يسألونه مستغربين عن بيسان..

ـ من هي الصبية الحلوة؟ يرد باقتضاب

«هي مرتي»

دقائق وعادوا بضيافة تليق بزوجة صديقهم.. شاي، قهوة، بسكويت.. بيسان صامتة تراقب..

أحدهم يقترب منها وهو يقدم الشاي والبسكويت ويقول لها: «إنتِ مرة أخونا»

خمَّنت بيسان وقالت في نفسها «شكله معروف ومحبوب هالأبو عبد الله»

صعد الجميع إلى الحافلة.. نساء.. أطفال وعجائز.. أغلقوا الستائر ومنعوا الناس من فتحها فصارت الحافلة معتمة تمامًا إلا من أصوات همس هنا وهناك.. كل امرأة تحمل ماضيها ككتاب

مغلق في صدرها.. البعض يقرأ العنوان فيشجعه ذلك على السؤال.. والبعض لا يجيد القراءة.

تتنقل بيسان بين وجوه الركاب.. تستمع لأحاديثهم.. أحدهم يحمل أخاه المعاق بين ذراعيه.. سمعته يقول للرجل الذي بجانبه:

«لي عشرة أيام أحمله بين ذراعيَّ.. عشرة أيام أمشي على أقدامي حتى وصلنا دمشق.. لم يبقَ من عائلتي إلا هذا الأخ.. كلهم راحوا.. كلهم راحوا»

تشرد بيسان بخيالها.. تعود لمخيم اليرموك.. تتذكر هنادي الطالبة في كلية الطب الذين ألقوها عند دوار البطيخة.. كانت بيسان تنوي أن تسير على خطاها.. تريد أن تدرس الطب مثلها.. اختفت فجأة.. قالوا حينها إن القيادة العامة (الجبهة الشعبية) التابعة للنظام هي التي سلمتها لقوات النظام بتهمة التواصل مع قنوات مغرضة وعميلة..

ركض المخيم صوب هنادي.. قالوا إنها مازالت على قيد الحياة.. ركضت بيسان مع من ركضوا.. استرقت نظرة إليها.. كانت تبدو أقرب للأشباح فوزنها لا يتعدى الخمسة والعشرين كيلو وبدا واضحًا آثار الحروق والصعق على يديها وأقدامها.. كان الدم يسيل من أذنيها وعينيها وأنفها.. لم تتحمل أكثر من ساعتين وماتت.

ملاحقة المتميزات وتعذيبهن كان يطال.. اللواتي يوظفن علمهن ومعرفتهن في خدمة الثورة..

تغمض بيسان عينيها محاولةً النوم فيطاردها رأس غسان.. ذلك الشاب الأسمر ذو العينين اللوزيتين والطول الفارع والصوت العذب الرنّان الذي يدندن لفلسطين.. ذنبه أنه كان يعمل في العمل الإغاثي ويساعد عائلات المخيم المنكوبة.. أخذوه في ليلة بلا ضوء قمر وقطعوا رأسه وعلقوه على باب المسجد الحسيني.

تفتح عينيها..

وصلوا لأول حاجز.. عرفت أنه حاجز للنظام.. أطفأ السائق أضواء الحافلة، أشعل الأضواء الداخلية، نزل السائق وأبو عبدالله.. ألقيا التحية.. لاحظت بيسان أنهما تجنبا قول السلام عليكم.. عرفت بعد ذلك أن هذه التحية قد تودي بهم إلى السجن!!

صعد عنصر من المخابرات إلى الحافلة وطلب من الجميع البطاقات الشخصية وأخذها ونزل لتبدأ عملية التفتيش واتصال الحاجز بالفرع الأمني للبحث عن أسماء وأصحاب البطاقات الشخصية إن كانوا من المطلوبين للنظام أم لا! عملوا فيشة لكل الأسماء..

نادى ضابط المخابرات قائلًا:

ـ أي حدا معه قنينة عطر، سبيرتو، علبة مي، ينزلها فورًا وإلا ما بتمرقوا.

فتح أسامة حقيبة بيسان.. أخرج علبة العطر ونزل من الحافلة وفتح الحقائب التي في بطن الحافلة وأخرج العطور ووضعها جانبًا فأخذهم العنصر.

بين كل حاجز وحاجز عشرات الأمتار فقط.. وأحيانًا مائة متر.. عند مرور الحافلة أمام كل حاجز كان أبو عبد الله يرشو أحد عناصر النظام حتى تستطيع الحافلة المرور بسرعة ومع ذلك كان يتم توقيفهم.. لكن الوقوف لمدة ساعة ليس كالوقوف لمدة اثنتى عشرة ساعة أو أربعة وعشرين ساعة!

وكلما دفع أبو عبد الله أكثر كانت مدة الوقوف تقل.. لكن لابد من الوقوف في كل الحالات.

تستغرب بيسان من انفتاح الذاكرة الآن!! يأتيها صوت مهند الذي كان يعمل في المكتبة مع أبيها حين أتى شاكيًا لأبيها:

«الحرب تُظهر أسوأ ما في البشر» قالها في محاولة منه لتحمل ما فعلته به خطيبته.. ألآن تعود وتتساءل:

«هل الحرب هي المسؤولة عن إظهار بشاعة البشر؟ أم أن

القبح موجود أصلًا ولكن الحرب هي التي أظهرته؟»

لم يتحدث مهند كثيرًا عما حدث له.. لم يرَ أنه من المناسب أن يتحدث عن الصفعة التي تلقاها من خطيبته.. لكن المخيم عرف حينها أن مهندًا الذي هرب من الخدمة الإلزامية وانشق عن جيش النظام واختفى ولم يكن يستطيع التواصل مع خطيبته إلا من خلال صديقه الذي كان المرسال بينهما.. فكان هذا الصديق هو الذي يوصل الطعام والشراب والرسائل إلى مهند..

هرب مهند إلى ألمانيا وبدأ يجهز أوراق خطيبته لاستقدامها بعدما حصل على الإقامة.. لكنه تفاجأ بزواج خطيبته من صديقه بعد عدة أشهر وهكذا شاع الخبر في المخيم!

مرت الحافلة على خمس حواجز للنظام.. لم يأخذوا هوية بيسان ولا هوية إخوتها لأن أبا عبدالله كان صديقًا للعناصر كما بدا لها من طريقة سلامه وحديثه معهم.

بعد آخر حاجز للنظام.. توقفت الحافلة عند استراحة.. في هذه الاستراحة صعد إلى الحافلة أناس جدد ونزل آخرون.

صعدت امرأة تلاثينية.. انطلقت الحافلة من جديد.. نظرت وتفحصت الناس في الحافلة.. قام أبو عبدالله من جانب بيسان وأجلس المرأة الثلاتينية..

فهمت منها بيسان أنها تريد النزول في المحطة التي قبل حلب وبدأت السيدة الثلاتينية تطرح أسئلة غريبة..

«ما اسمك، وكم عمرك، شو جاية تعملي هون؟»

شعرت بيسان من طريقة الأسئلة ونظراتها أنها جاسوسة!

أجابتها بيسان:

«أنا جاية مع جوزي.. ليكو أبو عبدالله.. وجاين معي إخواتي.. بدي أعمل عرسي في حلب بعد ما ماتوا أهلي.. ورح نستقر هنيك، ما ظل لي حدا بالشام»

لم تذكر بيسان سيرة مخيم اليرموك ولا أن أمها على قيد الحياة وتنتظرهم على الحدود التركية..

صمتت السيدة الثلاثينية قليلًا.. ثم قامت من جانب بيسان واتجهت صوب أبي عبدالله مع أن الباص لم يتوقف وفتحت معه مواضيع شتى وطرحت عليه نفس الأسئلة التي طرحتها على بيسان!!

ـ إنت متزوج؟

انزلق لسان أبو عبدالله وقال لها:

«إيه متزوج وعندي صبي»!

حينها شعرت بيسان بأن النفس توقف في حلقها وأن روحها توشك أن تخرج.

توقفت الحافلة عند الموقف الذي ستنزل فيه الجاسوسة. ركضت بيسان صوب أبي عبدالله.. قالت له:

«مو على أساس إنه رايحين نتزوج وإنت مو متزوج وماعندك ولاد!! على فكرة قبل ما تسألك سألتني نفس الأسئلة»

«لازم تصلح الموقف!! ما بعرف كيف.. دبر حالك»

قبل أن تصعد بيسان إلى الحافلة.. ذهب أبو عبدالله إلى الجاسوسة وقال لها:

«إن شاء الله صدقتي إني متزوج وعندي ولد؟!! أنا كنت بختبر بيسان إذا بتغار عليّ أو لا»

قفزت بيسان وضحكت قائلة:

«فيه ثقة بيني وبينك ما بصدق إنك متزوج ولو شفت بعيني»

سارت الأمور على ما يرام.. ونزلت الجاسوسة في المحطة المقررة.. بعدها وصلت الحافلة لحاجز النصرة.. عرفتهم بيسان من لحاهم ولباسهم الأسود وأسلحتهم المختلفة عن أسلحة النظام..

قال أبو عبدالله:

ـ لن ترين النظام من الآن ولآخر الرحلة.. الآن سنرى النصرة وداعش والجيش الحر.

قبل أن تصل الحافلة إلى حلب بقليل وقفت سيارة سوداء واعترضت الحافلة بطريقة درامية كالتي تحدث في الأفلام.. وقفت الحافلة ونزل رجلان من السيارة ومعهم كلب بوليسي..

وقالوا:

ـ معكم جاسوس ويجب أن نبحث عنه ونجده..

صعد الكلب إلى الحافلة وبدأ يشمشم بالناس وأخذ الأطفال بالصراخ والعويل.. لكنهم لم يجدوا شيئًا

ثم نزلوا وبدأوا يبحثون أسفل الباص فوجدوا رجلًا معلقًا مختبئًا بين الحقائب فأخذوه.

بقيت بيسان في الحافلة لم تنزل..

صعد أحد عناصر جبهة النصرة.. بدأ بتفتيش حقيبة بيسان.. أمسك بملابسها وغمزها بعينه.. شعرت بيسان بالرعب ونظرت لأبي عبدالله الذي أشار لها بالصمت..

وصلوا إلى بيت أبي عبدالله في اليوم التالي.. وقبل أن يأخذهم إلى بيته.. أخذهم على مطعم قريب وتناولوا طعام العشاء.. ناموا تلك الليلة في بيته.. وتجهزوا صباحًا للانطلاق..

# أبو فصيح

«من فلسطين اشتعل الحريق وامتدّ لأوطاننا المكبَّلة بالاستبداد والديكتاتوريات والعتمة التي سكنت الأحداق.. أوطاننا لم يأكلها أعداؤها فحسب، بل أكلت نفسها وابتلعت أحلامها لتغص بها وتختنق وأنكرت الدم الذي يسير في عروق الأرض وعروقها..

من هناك.. من فلسطين تبتدئ الحكاية.. منها المبتدى وإليها المنتهى؛ فثوب العز يُغزل في القدس.. .

من فلسطين اكتشفنا الطعم المر للهزيمة واعتقدنا لسذاجتنا أنها الهزيمة الأولى والأخيرة.. لنكتشف أن الهزائم تتوالد والعواصم تتساقط وما ذلك إلا لصمتنا على هزيمتنا الأولى.

المشاهد والصور تعيد نفسها.. مشاهد التهجير والترحيل القسري يُعاد مرة تلو الأخرى والصور تمتد كخيط من دم.. من يافا وعكا ودير ياسين إلى الغوطة وداريا ودرعا ومخيم اليرموك.

الاحتلال ينتصر علينا وبكفنا.. في حين ينعم هو باحتلال لا يكلفه شيئًا!!»

تطفو الآن هذه الكلمات التي كتبتها أمها ذات يوم.. إنها

تشرش في ذاكرتها وتمتد لأبعد نقطة في الذاكرة.. صدى الكلمات يتردد في رأسها وكأنها تراها لأول مرة.. إنها تشعر بكل كلمة الآن كما لم تشعر بها قبل ذلك..

يشير لها أبو عبدالله بيده لتقترب هي وإخوتها فقد انتهت مهمته وسيسلمهم لمهرب آخر يدعى (أبوفصيح)

يُطمئن أبو عبدالله بيسان قائلًا لها:

ـ المسافة من هنا للحدود التركية لا تستغرق أكثر من ساعتين.. لا تقلقوا.. ورقم هاتفي معكم إن احتجتم شيئًا اتصلوا بي.

في هذه اللحظة تحوّل القلب الصغير إلى جمرة يوقد كل الجسد.. النحيب الصامت يكلل الروح.. لم ترتح لأبي فصيح هذا!

حركت رأسها بالامتنان لأبي عبدالله.. ركبت السيارة بصحبة إخوتها، يجلس أسامة بجانب أبي فصيح وتجلس مع عزالدين ويحيى في الخلف.. يمسك يحيى بيد بيسان ولا يريد أن يفلتها وكلما تراخت يد بيسان قليلًا شدّ عليها بقوة.. وانطلقت السيارة صوب الحدود التركية.

تمضي السيارة في طريقها.. بينما يثرثر أبو فصيح:

ـ العبور لتركيا ليس صعبًا.. والطريق ليست مخيفة والمبلغ

الذي دفعتموه قليل.. لكنني أحب أن أساعد أولاد بلدي ولأنكم أطفال صغار وبدون أم وأب أحببت أن أساعدكم.

تلمح بيسان ما وراء كلمات أبي فصيح وتصمت.. يلتفت أسامة لأخته ويشعر بريبة وخوف من كلام المهرب.

التخيلات السيئة تنهش عقل بيسان، شرد خيالها بعيدًا..غالبت دموعًا أوشكت على السقوط.. تحدث نفسها وتمسك قلمها المتخيل وتكتب على صفحات الذاكرة: «ما الذي فعلته الحرب بنا؟ وكأن حربًا واحدة لا تكفي ونكبة واحدة لا تكفي.. النكبة ما عادت ماضيًا تتحدث عنه الجدات بأسى.. إنها الحاضر والمستقبل.. إنها فوقنا وعن أيماننا وشمائلنا.. تحيط بنا إحاطة السوار بالمعصم.

الحرب تجعلك طاعنًا في الفهم.. تفهم قبل أوانك وتهرم قبل أوانك.. أزعم أنني سنبلة جافة قد لا تنثر حبها أبدًا.. وأحيانًا أشعر بأني نخلة سامقة لا تهزها ريح ولا يقلعها عويل..

ومع هذا الجفاف.. أرى النبع يتهيأ لري القلوب الجافة.. أرى سراجًا يتهيأ للاشتعال

الحرب تجعلك تعي أكثر.. ترمم شقوق الروح.. وتجعل النجوم لك منازل..

عندما تراني أمي لن تعرفني.. أشياء كثيرة سُرقت مني وأشياء استبدلتها بمحض إرادتي.. كل يوم تسقط قناعة وفكرة وإحساس ومعنى ويُوضع بدلًا من ذلك أفكار وأحاسيس ومعانٍ جديدة..

هل مازلت بيسان الأولى؟ أم صرت نتاج المأساة والجوع والحرب والحصار؟!!

أسامة وعزالدين ويحيى بقوا أطفالًا في العمر.. لكنهم لم يعرفوا من الطفولة غير الاسم والصورة!

ثم تمسك بيسان الممحاة المتخيلة وتمحو كل ما سبق..

آه لو قُدر لها أن تمحوَ كل ما انخط على صفحة الذاكرة وتبدأ من جديد»

فجأة يصدح صوت (أبي فصيح) بأنهم وصلوا إلى المكان.. تغوص بيسان في وجوه الناس.. تتأمل حكاياتهم غير الناطقة.. تبدأ الجموع البشرية الشاحبة بالتحرك صوب الغابة.. غابة مليئة بأشجار عالية وكثيفة تفوح رائحة المطر من الأرض وتختلط بأنّات وجراح الجرحى وبكاء الأطفال وصفرة ألوان النساء.. لكن هناك رائحة قوية استطاعت بيسان أن تميزها جيدًا.. إنها رائحة الخداع..

ستبقى هذه الرائحة عالقة بأنف بيسان لوقت طويل.. ستألفها وتعتادها..

إلى بيت مهجور يأخذهم أبو فصيح مع عشر عائلات وعندما اعترضت إحدى النسوة على برودة البيت وعدم صلاحيته لسكن الآدميين هددها أبو فصيح بالسلاح قائلًا:

ـ نريد أن نأمن الطريق.. الجندرمة منتشرة.. أي اعتراض أو صوت سيكون مصيركم الموت.

أي حركة غير عادية يمكن أن يطلقوا علينا النار بسببها.

في هذا البيت سيجلسون لمدة أربعة أيام بلا أغطية ولا فراش. سيُغلق عليهم الباب وكأنهم في سجن ولا يُفتح إلا عند الإتيان بالطعام (تونة ورغيف خبز) البيت يتوسط غابة موحشة.. النوافذ مغلقة مُنعوا من فتحها لأي سبب كان.

تمر الأيام الأربعة.. تشعر بيسان نفسها وكأنها دابة تنتظر العلف.. كانت تأكل فقط لتبقى على قيد الحياة، كان أكبر همها حماية إخوتها وخاصة الصغير يحيى الذي لا يملك سوى جاكيت واحد.. يُفتح الباب في اليوم الخامس على مصراعيه.. يرون الشمس لأول مرة، تصدمهم بقوة أشعتها.. فلا يستطيعون الإبصار للوهلة الأولى.. المطر توقف في الخارج وبدا الجو رائقًا ربيعيًا جميلًا.. نادى أبو فصيح على بيسان وإخوتها.

قسم أبو فصيح الناس إلى مجموعتين.. النساء والأطفال في

مجموعة والرجال والمسنين في مجموعة أخرى.. ارتفعت الأصوات بالاعتراض لكن لم يأبه أحد.

سلمهم أبو فصيح للمهرب الأخير الذي يعمل تحت إمرته ثلاثة (دلّيلة)

يعاود بيسان الشعور بأنها ذرة رمل لا قيمة له.. يكنسونها كيفما شاؤوا..

كانوا ثلاثة (دلّيلة) أحدهم يقود الركب ويتقدمهم في الأمام والآخر في وسط الركب وهناك رجل ثالث ككلب الأثر في المؤخرة..

اثنان من الدلّيلة مسلحان.. أما الثالث فلم تره بيسان إلا لحظة تسليمهم له ولحظة دخولهم إلى الأراضي التركية وكان أعزلَ.

كانت بيسان لا تفتأ تتلفت يمينًا وشمالًا علّها تحظى برؤية أمها التي انقطع التواصل معها تمامًا بسبب نفاد شحن هاتفها منذ خمسة أيام..

قدّرت أنها ستكون عند الضفة الأخرى من نهر العاصي تنتظرهم هناك.. لكنها كانت توقن بأنها تتابع أخبارهم أولًا بأول وتحيطهم بأجنحتها غير المرئية ودعواتها وتوسلاتها لله.

عرفت بيسان أن هؤلاء (الدلّيلة) الذين يسيرون بصحبتهم..

هم صغار المهربين وأن هناك مهربًا كبيرًا يمسك بكل الخيوط ويقبض كل الأموال ويدير هذه الشبكة الواسعة.. خمنت بيسان أنهم عصابة كبيرة جدًا لا تقل خطورة عن المافيا التي كانت تسمع عنها في الأفلام.

بدأ الركب بالتحرك.. نبهوا على الأمهات والأطفال بعدم إصدار أي صوت ولو كان همسًا.. منعوهم من استخدام أي ضوء كاشف ينير لهم الطريق الوعرة الموحشة.. وبالنسبة للأطفال الرضع أعطوهم دواء منومًا حتى لا يصدروا أي صوت فيثيروا انتباه حرس الحدود (الجندرما)

رمى (الدلّيل) علبة الدواء المنوم لبيسان حتى تعطي الصغير يحيى ملعقة.. لكن بيسان رفضت بشدة وقالت له: «يحيى عمره ثلاث سنين ونصف وأستطيع السيطرة عليه ولن أدعه يصدر أي صوت.. إنه رجل.. والتفتت إليه وقالت:

ـ يحي رجل.. صح؟؟ فأومأ لها بالإيجاب والفخر يلتمع في عينيه.

كانت بيسان تسير وهي تحوّط إخوتها؛ فقد سمعت كثيرًا أن هناك من يضيع في الطريق فتأكله الوحوش الضارية.. أو يموت من الجوع والعطش.

الصمت يخيم على الركب.. لا يقطعه سوى صوت (الدلّيل) بين فينة وأخرى:

«اقتربنا.. لم يبقَ إلا القليل.. ساعتان ونصل إلى نهر العاصي»

لكن الساعتين أصبحت عشر ساعات..

صاحت امرأة فجأة.. كانت آخر الركب ومع ذلك بدا صوتها حادًا ممزقًا..

ـ ابني يا ناس.. ابني مات.. ابني ماعم يتحرك.. دخيلكون ساعدوني.

تبعثرت الجموع وصار هرج ومرج وتجمعوا حول المرأة المكلومة يحاولون مساعدتها والتخفيف من مصابها.. ألتفتوا للدلّيل.. قالوا له:

«دخيلك خلينا ناخدوا على أقرب مستشفى، بركي لساتو عايش»

تأملت بيسان النسوة اللواتي أخذن يبكين على بكاء المرأة.. تغوص في وجوههن.. تتأمل حكاياتهم.. فكل واحدة منهن تبكي المرأة المكلومة وتبكي حالها.

صرخ الدلّيل:

ـ اسمعوا.. لا أريد أن أسمع أي صوت.. سأكمل المسير. من يقع.. من يموت.. اتركوه مكانه. لن ننتظر أحدًا. إذا انتظرنا من يقع ومن يموت لن نصل أبدًا.. هل فهمتم؟؟ اتركوها هي وابنها.. إن أرادت اللحاق بنا فأهلًا وسهلًا وإن لم تُرد اتركوها مكانها.. يجب أن نصل قبل طلوع الضوء.

لم يصدق الناس ما يحدث.. اعتقدوا أنهم لم يسمعوا وبدأ بعضهم بفرك أذنيه ومسح الغشاوة عن عينيه!! واعتقد البعض الآخر أنه خانهم الفهم فظلوا متجمهرين حول المرأة وطفلها الميت بين يديها.. ظل الموكب واقفًا لا يتحرك حتى أطلق الدلّيل عدة طلقات نارية في الهواء لتفريق الجموع وحثهم على متابعة المسير.

بعدما أطلق الطلقات الأولى قال بصوت حازم:

ـ الطلقات الثانية ستكون على أرجلكم.. هيا بسرعة.. انفضوا من حولها.. تقدموا للأمام واتركوا المرأة وشأنها..

انفض الركب بسرعة.. أخذ يحيى يشهق ويبكي بصوت عال.. المرأة المكلومة تصيح:

ـ هذا كله من الدواء المنوم الي أعطيته لابني.. روح الله لا يكسبك ولا يوفقك.. يارب تلاقيها بولادك.

سار الجميع خلف الدلّيل في حالة وجوم وشعروا أنهم وقعوا

في مصيدة.. تحمحم الفجيعة ويسيرون رغم كل شيء وكأنهم في موكب مهيب نحو مصير مجهول.

تركوا المرأة خلفهم وقلوبهم تنفطر عليها فليس في اليد حيلة.. ولن يستطيعوا متابعة الطريق وحدهم فهم لا يعرفون الطريق ولا خبرة لديهم عن المنطقة وطبيعتها ولن يستطيعوا الرجوع أيضًا لأنهم لا يعرفون طريق العودة فالدلّيل هو الذي يعرف كل شيء ورقابهم تحت سيفه.

ظلت بيسان تكتم صرختها حتى لا يشعر يحيى وإخوتها بالرعب الذي تشعر به.. الأنين يصدر من فم يحيى وهو يضع يده على فمه حتى لا يصدر صوتًا.. لقد غار صوته تمامًا عندما رأى الطفل الرضيع بلا حراك.

وصلوا إلى نهر العاصي الساعة الثالثة عصرًا وحتى لا تشك الشرطة التركية بهم كان عليهم أن يعبروا النهر ليلًا..

عند ضفة النهر كان هناك سيل من البشر ينتظرون دورهم للعبور..

الدلّيل يستعجلهم للركوب في (القِدر الكبيرة)

القدر موصولة بحبلين بين ضفتي النهر السورية والتركية.. والقِدر شكله دائري يتسع لحوالي خمسة أشخاص أو ستة وهو

بمثابة سفينة صغيرة.. وفي صمت مطبق بدأ الحبل يتحرك للضفة الثانية التي يقفون عليها ليصل القدر إليهم. صعدت بيسان هي وإخوتها وامرأة جريحة وطفلها والدلّيل.. القارب يتلوى تحتهم كثعبان يوشك أن يبتلعهم..

تنظر بيسان إلى النهر.. تتمتم بكلمات أمها:

«قد تكون في لجة البحر فيُفتح لك طريق النجاة كـ نبي

وقد تكون على الضفاف فتغرق.. النجاة لها حبل لا يعرفه إلا من ذاق طعم الوصال مع الله»

يتحرك القِدر.. ويتشكل قدرٌ جديد مع كل موجة جديدة.. ومع كل ابتهال لله..

وبين التهجير القسري الأ ول الذي تحمله بيسان في ذاكرتها والتهجير الثاني الذي تعايشه الآن ترتسم حكايات جديدة..

وصلوا للضفة الأخرى.. كان في انتظارهم سيارة تشبه سيارة نقل النفايات الكبيرة.. صعدوا إليها.. كانت بيسان تتلفت يمينًا وشمالًا علّها ترى أمها.. لكنها لم ترَ شيئًا.. فالضباب شديد.

عندما تحرك سائق السيارة صوب الأراضي التركية، فجأة خرجت الشرطة التركية ووقفت الدبابات والجنود يعترضون طريقهم.

قالوا:

ـ لا يمكنكم المرور وإلا سنطلق النار عليكم.. أي حركة سنطلق النار.

الدّليل يتحدث التركية بإتقان.. قال لهم:

ـ أرجوكم.. نحن معنا امرأة جريحة وطفل رضيع وأولاد أيتام ليس لهم أم ولا أب ونحن لا نريد البقاء في تركيا ولن نؤذي أحدًا.. لن نمكث في تركيا.. نريد أن نكمل طريق هجرتنا لبلد آخر.. دخلنا بلادكم فقط للعبور.

فكّر الجندي قليلًا وقال:

ـ سأعدّ للثلاثة وعندما أنتهي من الرقم ثلاثة.. إن لمحت سيارتكم سأبدأ بإطلاق النار عليكم؛ فهناك أوامر ولا أستطيع مخالفتها.

وفعلًا وقبل أن يُتم الجندي التركي عد رقم اثنين كانت السيارة قد تحركت ودخلت الحدود التركية

تتلفت بيسان.. تنظر حولها.. تراها من بعيد.. امرأة في أواخر الثلاثين كتفاها متهدلتان للأمام وكأنها تمسك ببطنها من الألم.. قامة طويلة ونحيلة للغاية.. منديل أخضر يلتف حول شعرها ونحرها ويعكس لون عينيها وبشرتها.. تتكئ على عكاز!!

لم تلتق أعينهما بعد.. تصطك أسنان بيسان وترتعش أقدامها ولا تحملها.. تركض بيسان صوب أمها التي لا تراها.. تشعر خزامى بصوت طقطقة أقدام تجري نحوها تشتم رائحة عبير أنفاس اختبرتها مرارًا.. تقع للحظات ثم تستجمع قوتها.. تعلو الأصوات وتتعانقان.. تُبعد خزامى وجه بيسان قليلًا عنها.. تتأملها وهي تمسك بكتفيها وتشهق لمنظرها!!

تتراجع بيسان قليلًا للخلف لتتأكد من ملامح أمها.. تلمح أسنانها الأمامية المكسورة بفعل فاعل كما يبدو.. يسترخي الأولاد فوق صدر أمهم.. يختلسون النظر إليها كل حين..

شعور خيالي.. فبعدما تظن أن الأرض أقفرت وصارت جرداء قاحلة لن ينبت فيها زرع.. هاهو الله يحييها.. الله يحيي القلوب الجرداء العطشى.. هاهي تلين وتطرى بعد الجفاف.. هاهو اليقين ينبت بعد القنوط والرؤية تتضح والغشاوة تزول.. الطريق الذي بدا طويلًا مقفرًا ها هو يُطوى في لحظة!!

ستحضنهم ويبكون طويلًا.. ستشمهم وتنتصب قامتها بهم بعد طول انحناء، الصغير يحيى يخجل الاقتراب من أمه؛ يلوذ بثياب بيسان ويحاول الابتعاد.. سيتحلقون حول أمهم.. يسمعون منها وتسمع منهم ما حدث.. يبقون إلى أن يشقشق الضوء.. أطفال وأمهم.

هل سيُمحى كل شيء داخلهم؟

هل ستختفي أصوات القذائف ومشاهد الجثث المتفسخة والبراميل المتفجرة من ذاكرتهم الطرية الغضة؟؟

هل انتصروا؟

الانتصار الحقيقي في أي معركة هو أن يبقى الموجوع على قيد الأمل رغم الركام والخراب.

***

# إلى أنطاليا

وصلوا إلى ضيعة قريبة من الحدود ..اشترت خزامى وجبات طعام وعلب الماء والعصير ووزعتها على أطفالها.. لم تتكلم أبدًا.. كانت تتأملهم ودموعها تنساب بغزارة، تصفن بيسان في أمها.. تفكر في دموعها المنسابة وصمتها.. تحاول تفسيرها.. تشرح الأمر «أي كلمات يمكنها أن تفي وتعبر عما هي فيه؟! الكلمة عاقر لا يمكنها أن تلملم هذا الفائض من الأحاسيس والمشاعر المركبة.. فيكون البكاء هو التعبير الأكثر صدقًا وأناقة.. ففي البكاء ما يغني عن البوح والكلام»

تقف العائلة والتي تجتمع لأول مرة بعد تسعة أشهر من الفراق على حافة الشارع.. خزامى ترتجف كأنها محمومة.. لكن لسانها بدأ يلهج بالحمد والشكر لله، يستأجرون سيارة تقلهم إلى أنطاليا.. المطر بدأ ينثر رذاذه الناعم بخفة وكأنه يغسل أرواحهم المتعبة من أصوات القذائف والبراميل المتفجرة

تتذكر خزامى الفاجعة بمجرد أن تضع جسدها على كرسي السيارة، لم تفهم ماذا حدث وكيف!!

ما الذي فعلته بهم الحرب.. ينفتح باب الكلام.. ترى مؤيدًا

أمامها.. تهمس له فيما الأولاد يغِطون في نوم عميق:

«نحن محظوظون يا مؤيد.. الكثيرون لم يصلوا، قُتلوا وخُطفوا وعُذبوا ولا أحد يعرف مكانهم.. في وقت من الأوقات كنا نظن أن معركتنا مع الصهاينة فقط!

وحدها السكين التي يحملها أخوك هي التي ترديك..أما الطعنة التي يسددها لك العدو لا تكسر ظهرًا ولا تحني هامة.. أما طعنة ذوي القربى هي تجعلنا عراة يغشانا الخزي والعار

أرى الأمهات المكلومات وأتساءل: «كيف اتسعت صدورهن لهذا الوجع؟ أم أن من اتسع صدرها للوطن فلن يضيق أبدًا.

زمان يا مؤيد كنت أتتبّع أمهات الشهداء في فلسطين.. وأرِقُّ لحالهن.. أما الآن فأنا أغبطهن..

هنّ محظوظات فعدوهم واضح وصريح.. فالأم هناك تربي لفلسطين أبناءها.. تبذر اليقين وتتلو الأنفال وتسرج الخيل..

أما هنا فالأمر عجيب.. الاحتلال الإسرائيلي أبقى يده نظيفة أمام العالم.. فاخترع أعداء جددًا.. مدوا أيديهم السوداء في سوريا والعراق واليمن وليبيا والحبل على الجرار.

تصحو بيسان.. تفتح ستارة نافذة السيارة فترى المخيمات التي أقامتها الدولة التركية للسوريين.. بدأ الخوف يستبد بها، خافت أن

تمسك بهم الشرطة وتزج بهم في إحدى هذه المخيمات، عندها لن يستطيعوا الخروج خاصة أنه ليس لديهم أوراق تبوثية ووثائقهم الفلسطينية احترقت في الحرب.

تقول بيسان:

«يحشرونهم في المخيمات كما حشروا الفلسطينيين من قبل وكأنه محكوم على اللاجئ أن يبقى لاجئًا حتى الموت!

يعدون عليه الحركات والأنفاس، يحبسونه في هذه الأقفاص بحجة حفاظهم عليه لحين العودة».

يمرون على سهل أخضر واسع مليءٍ بالأطفال الذين يرتدون أفرهولات أكبر من حجمهم.. الأطفال منثرون كحبات القمح.. يقتلعون نبات الكرفس.. تتابعهم خزامى وتشرح لأولادها:

ـ في اليوم يقتلعون ما يزيد عن (١٠٠٠) جذر من نبات الكرفس، يغسلونها مقابل مائتي دولار بالشهر وخيمة ينامون فيها. لم يلتحقوا بالمدارس ولن يحلموا بالسفر لأروبا فتكاليف التهريب غالية جدًا وبالكاد يأكلون اللقمة.

***

يصلون أنطاليا ومن هناك يقومون باستئجار حافلة إلى اسطنبول التي يستغرق الوصول لها خمس عشرة ساعة..

عندما صعدوا الحافلة.. انقشعت الغيوم السوداء التي كانت تلاحقهم ولأول مرة يشعرون بالأمان فليس هناك من يستطيع أن يمسك أو يوقع بهم.. الآن شعروا أن الحرب انتهت.. على الأقل في الواقع إن لم يكن داخل رؤوسهم وآذانهم وأعينهم.

الحافلة مجهزة بكل شيء.. خدمات سيرفس.. مشروبات وجبات طعام، حمام، ولأول مرة منذ أشهر طويلة يمدّ الأولاد أرجلهم على مقاعد الباص وينامون بعمق.. بينما خزامى تتأملهم.

عندما استيقظوا كانت أزهار التوليب قد بدأت تصافحهم والجوامع تعانقهم.. اقتربت الحافلة من المحطة الأخيرة للنزول.. سألت خزامى ابنتها:

ـ كيف أبوكِ؟ ما حكيتِ لي أخباره!!

نظرت بيسان في وجه أمها مليًّا وقالت بصوت واضح وهي تشدّ على الحروف:

ـ بابا مات منذ لحظة خروجنا من المخيم.. لم يتحمل أكثر من ذلك.

أكملت خزامى كلامها وكأنها لم تسمع ما قالته ابنتها..

«في آخر مكالمة قال لي إنه سيلحقني.. سنجهز له كل شيء.. قد يتأخر قليلًا ريثما يتعالج ويشفى من إصابته.. لكنه حتمًا

سيعود.. إن لم يلحقنا في تركيا فسيلحقنا إلى النرويج.. علينا أن نجهز أنفسنا بسرعة ونتفق مع مهربين ثقة.. سأتفق معكم.. لن نحكي له عن أي شيء حصل معنا حتى لا نزعجه.. لا تخبروه عن إصابتي واتكائي على العكاز وحاجتي لعملية مستعجلة.. سيلتم شملنا قريبًا.. وسيصلنا في أبهى صورة بعد أن يُتم علاجه.. عينه التي أصيب بها سنعالجها في أروبا.. يقولون إن الألمان ماهرون في طب العيون.. عندما يرانا سينسى الوجع والألم.. صدقوني لن يكون منهكًا ولا متعبًا.. عندما يرانا سيفرد أجنحته علينا ويظللنا ويحمينا ويضمنا ويدفئنا..

عندما أراه سأحميه وأضعه في بؤبؤ عيني.. عندما يكون أبوكم جانبي سأكون أكثر قوة وثقة.. سأرتاح وأسلم له كل الأمور ولن أفكر في شيء أبدًا.. لقد تعبت يا أولاد»..

بيسان وإخوتها يتطلعون في أمهم ويتساءلون بصمت:

أتُراها جُنت ؟ أم ترفض تصديق الموت

إنها تشبه أبي كثيرًا.. عندما اختفت تعامل مع الأمر وكأنها موجودة معنا !!

هل تخترع قصة بقائه على قيد الحياة لتحتمل الباقي من الأيام كما فعل أبي بالضبط!!

إنها تحمي روحها من الصدأ وتحمي عقلها من الجنون.. تكذب أذنها وكأنها ما سمعت!! حاجز شفيف ما بين الحياة والموت كما بين النوم والصحو لذلك؛ هي تشعر به بيننا.

لن تصدق موته.. كما كل الأحباب لا يصدقون موت أحبابهم.. هي تعرف أنه لن يعود.. لكنها لن تتخلى عن رؤيته ولا عن سماعه.. سيبقى جانبها وتبقى جانبه.. بهذه الطريقة تنتصر على الموت وتسخر منه.. تشعر بأن زهرًا حقيقيًا يتفتح داخلها.. يمدّ مؤيد يده نحوها فتمسك بيده ..

تطأطئ بيسان وجهها في الأرض.. تهمس في أذن أخيها أسامة:

أمي كانت تتنفس أبي.. إذا صدقت بموته ستموت.. لندعها تحكي وتقول ما تريد.

قد تتكئ على كتف كذبة وأنت تعرف أنها مجرد كذبة حتى تستطيع الوقوف وإكمال الطريق !!

نزلوا من الحافلة، توجهوا إلى بيت مفروش في أكسراي كانت قد استأجرته خزامى مسبقًا، اتصلوا بالعمة شادية وطمأنوها وتواصلت خزامى مع أختها في الإمارات وأخيها في النرويج.. الذين لم يلبثوا حتى حضروا لرؤيتهم بعد أيام قليلة.. مكثوا عندهم

عدة أيام واطمأنوا عليهم ورتَّب لهم الخال بديعٌ أمر الهروب إلى النرويج.. قال لأخته خزامى:

ـ كنتُ أود أن أهربكم بالطائرة ولكن هذه الطريقة تحتاج لجواز سفر سوري ساري المفعول ومبالغ ضخمة جدًا لا قِبل لنا بها.. لذلك أرى أن أفضل طريقة للهرب عن طريق البحر إلى اليونان ومنها إلى النرويج.. أنا وعائلتي جربنا ذلك ونجحنا في العبور والحمد لله.. لن أجعلكم تخاطروا بطريقة أخرى.. سنجرب المُجرَّب..

اطلبي وتمني من الألف للمئة ألف.. رقبتي سدادة يا أختي.. سأتواصل مع المهرِّب الذي هرّبنا..

حاول الخال الاتصال مع المهرب لكن هاتفه كان مغلقًا طوال الوقت..

***

## من يفتح ذراعه لخزامى؟

كيف قبلت خزامى بهذا الخيار؟ في الحقيقة هو لم يكن خيارًا.. الأمر كان مفروضًا عليهم.

إما أن تموت جوعًا وذلًا وتبقى في تركيا وتُسحق.. وإما أن تخوض تجربة اليَمِّ حتى وإن ابتلعها هي وأطفالها الأربعة.. البحر هو الجهة الوحيدة الذي فتح ذراعيه لها ولأطفالها الأربعة.

لم يكن معهم جوازات سفر سورية صالحة تثبت من هم لأنهم ليسوا سوريين أصلًا.. وما تبقى معهم من وثائق سفر سورية انتهت مدتها منذ خمس سنوات بسبب الحرب ولم يستطيعوا تجديدها بسبب الحصار على مخيم اليرموك.. حتى الصور الملصقة على الوثائق كانت منتهية الصلاحية فملامح الصغار تغيرت كثيرًا ولم يعودوا يشبهون أنفسهم!!

كل شيء كان يدعوها للبحر.. فلا أوراق ثبوتية ولا أموال.. وليس هناك مأوى لها يجمعها وأطفالها في تركيا.. ولا معيل.. ولذلك وبعد إلحاح من الخال أقنعهم بأن الوجهة الأنسب هي أوروبا والنرويج بالذات.

أوروبا تفتح ذراعيها للأسر اللاجئة سواء كان اللجوء سياسيًا

أو إنسانيًا وبمجرد الدخول لأروبا تبدأ البلد المضيف بالإنفاق عليهم إلى أن يشتد عود العائلة ويحصلون على عمل ويكبر الصغار.

في تلك الليلة وبينما الخال يجهز حقيبة السفر قال:

أُفضّل النرويج؛ لأنني سأرتب لكم كل شيء فور وصولكم.. وفي السويد لنا أقارب كثر.. لكن أحب أن تكونوا بقربي.. أعرف أن حجم المخاطرة كبير والرحلة ليست سهلة لكن الوضع في أروبا أفضل مئة مرة من المكوث في تركيا.

أغلق الخال الحقيبة ومشى صوب باب الشقة المفروشة مستعدًا للخروج.. ثم توقف عند الباب وقال:

ـ في تركيا لن يستطيع الأولاد إكمال دراستهم ولن تستطيعي الإنفاق عليهم يا خزامى.. والحصول على عمل في تركيا أمر صعب ومضنٍ.. وأولادك كلهم صغار.. أكبرهم في الثامنة عشرة وأنت مصابة وبحاجة إلى علاج ومتابعة.. لن تستطيعي العمل في هذه الفترة مهما كان العمل بسيطًا وكتابة المقالات التي كانت تُدر عليك بعض الدولارات لن تطعمك خبزًا هنا.. لذلك كله أنصحك أن لا تكون تركيا هي وجهتك الأخيرة.

ودّعها وودَّع الأولاد وأكد عليهم الاتصال بالمهرب الذي

سيساعدهم في الوصول للنرويج ثم قال:

ـ ما هو أكثر شيء يمكن أن يحصل لكم؟!! أكثر من هالقرد ما مسخ الله.. وضحكوا وجميعًا..

أغلقت خزامى الباب وراء أخيها وبدأت تحسب الأمر في دماغها..

«لم أركب سفينة في حياتي ولا أعرف حتى شكلها وأطفالي صغار وقصص الموت غرقًا تملأ الصحف ووسائل التواصل ووسائل الإعلام.. في عام ٢٠١٤ غرق ما يزيد عن ٣٢٧٩ لاجئ.

قد تكون النقود التي سأدفعها للمهرِّب ثمن غرقي وأطفالي لا ثمن حياتي!

ما الذي يضمن لي صدق هؤلاء المهربين.. سمعتُ كثيرًا عن القوارب التي تحمل فوق حمولتها ثم تغرق.. الأفكار تؤرجحها يمينًا وشمالًا.. وكأننا حينما لا نعرف كيف نحيا.. يصبح السؤال الأكثر إلحاحًا هو.. كيف نموت؟!!»

فكرت بالسفر بطريقة أخرى.. وهي السفر عن طريق الطائرة.. قد تكون مكلفة جدًا لكن هذا لا يهم إطلاقًا.. يمكنها أن ترسل إلى شادية كي تبيع البيت.. تضحك بشكل هستيري.. وتتمتم:

ـ من سيشتري بيتًا في الحرب؟

تسأل وتستقصي فيأتيها الجواب.. بأنه يمكن أن تنجح هذه الطريقة إذا كان هناك اتفاق مع الموظفين في المطار والموظف الذي يقف على باب الطائرة بأن يغض الطرف لعدم وجود فيزا والسماح للراكب بالصعود مقابل مبلغ مالي يبدأ من (تسعة آلاف يورو) للشخص الواحد.. وكل دولة لها سعرها الخاص بها.. وهذه الطريقة تناسب من يملكون جوازات سفر سورية سارية المفعول!!

الخيارات كلها لم تعد موجودة وقد ناقشتْ الأمر مع أخيها مسبقا ولكنها مع ذلك أعادت التفكيرة مرة أخرى لتصل إلى قرار نهائي لا رجعة فيه.

هناك طريق واحد بلا عودة وهو اللجوء لأروبا..

بدأت خزامى تتواصل مع المهرب الذي هرّب أخاها وعائلته.. لكنه لم يرد على اتصال من اتصالاتها.. وكأن رقم هاتفه قد تغيّر..

تواصلت مع آخر يدعى (الدكتور) وهالها الأمر عندما عرفت أنه طبيب فعلًا!!

إنه جراح سوري سابق.. لم تفهم كيف تحوّل إلى مهنة الاتجار بالبشر وتهريبهم!!

فهمت منه بعد ذلك أنه حاول أن يهرب ذات مرة وغرق مركبه ونجا بأعجوبة.. لذلك أخذ على نفسه عهدًا أن يعمل في هذه المهنة لكي ينقذ اللاجئين كما كان ينقذ المرضى.

يقول:

ـ أنا لا أخجل من هذا العمل بعدما كنت طبيبًا؛ لأنني صادق والمهربون أكثرهم كاذبون يتركون ضحاياهم وسط الأحراش والغابات ليقبض عليهم خفر الحدود.. أو يُركبونهم في زوارق مطاطية مستهلكة وغير صالحة لركوب البشر فتثقب بعد عشر دقائق من إقلاعها.. أو يكدسونهم فوق بعضهم البعض مما يزيد من حمولة القارب فينقلب في عرض البحر.

كان هناك شيء غير مريح في كلام الدكتور.. لكن ليس أمام خزامى إلا هذا الخيار.. دفعت له المبلغ المالي المقرر واشترت سُتَر النجاة لها ولأطفالها وذهبت لتجهز أمتعتها.

جاءها مؤيد في الليل..

هل جاء ليودعها.. أم جاء ليحذرها؟!

لا تدري إن كانت قد نامت أصلًا.. لم يغمض لها جفن.. كانت بين الصحو والنعاس.. كان فوق رأسها.. حكت له كل التفاصيل.. قبَّلت رأسه ويديه.. ثم قامت لتصلي ركعتين تستخير الله.

عندما جَنّ الليل.. خرجت وأطفالها في سيارة أجرة إلى مدينة مرسين.. مكثوا يومين في فندق.. الفندق لم يكن مريحًا.. فيه نساء ملونات.. أشكالهم وحركاتهم وطريقة كلامهم أثارت الاشمئزاز والريبة في قلب خزامى.. كان أيضًا هناك نساء صغيرات مع أطفالهن وعجائز موجوعات أنهكتهن الحرب وفقد الأبناء.. كل واحدة منهن لها قصة وغصة.. لا أحد يمكن أن يلقي بذكرياته على قارعة الطريق ويمضي وكأن شيئًا لم يكن.. حتى في اللحظات التي يُخيل فيها للمرء أن الذاكرة هدأت واستراحت تعود بقوة أكثر وتنبعث من الجمر المغطَّى بالرماد.

انطلق الجمع كله إلى البحر.. كانوا قد اتفقوا مع المهرب أن يركبوا سفينة تتسع لـ مئتي شخص.. وكانوا يقاربون المئتين.. ليجدوا أن القارب لا يتسع سوى لخمسين شخصًا..

عندما رأوا القارب عرفوا أنهم وقعوا ضحية عملية نصب وقررت الرجوع.. أما بقية العائلات بعضها عاد كما عادت خزامى والبعض الآخر قرر المجازفة وركوب القارب..

عندما أعلنت خزامى اعتراضها وقرارها بالعودة.. ركبت الحافلة ومشت الحافلة قليلًا ثم أنزلهم السائق وسط الطريق في منطقة مقطوعة.. ليس فيها إنس ولاجانّ..

كان الدلّيل يرفسهم بعقب بندقيته وهو يحثهم على الإسراع في النزول من الحافلة..

نزلوا وبدأ الركاب يبحثون عن مأوى.. .مشَوا طويلًا على غير هدى.. الأطفال كانوا يصيحون من البرد والخوف.. بعد ساعات من المشي وجدوا (كازية) على الطريق العام

الكازية لا تعمل وليس فيها أحد.. دخلوا إليها وباتوا ليلتهم فيها.. لم يكن فيها سوى كرسي واحد.. أخذ الناس يتناوبون الجلوس عليه.. وعندما شقشق الفجر حجزوا بحافلة أخرى وعادوا إلى مرسين.

***

# أرضنا بور رغم خصبها

لم تيأس خزامى فلابد من المحاولة للمرة الثانية وفعلًا عادت واتفقت مع مهرب آخر

لا مناص من التعامل مع المهربين عاجلًا أم آجلًا.. ستظل تجرب إلى أن تتحرر من القيد..

فهذا الزمن هو زمن القتلة والخونة والعملاء.. أما زمننا فحزين من غير دمع وحارق ويطول البُرء ..

أرضنا بور رغم خصبها.. وقلوبنا باردة رغم نبضها..

بعد الاتفاق مع المهرب الثاني أرسلهم من مرسين إلى فيلا قريبة من الشاطئ.. هذه الفيلا معروفة بأنها تأوي المهاجرين.. وضعوا النساء في الطابق السفلي.. والرجال في الطابق العلوي وأعطوا لكل عائلة وجبة عشاء تتضمن (علبة معلبات لكل شخص ورغيف خبز)..

خرجوا من الفيلا في منتصف الليل.. كان البرد قارصًا جدًا والدنيا كحل أسود لو وضعت يدك لن تراها من شدة العَتمة.. وعندما وصلوا إلى الشاطئ اكتشفوا أن القارب متهالك قديم.. وكانت (الجندرمة) في قلب البحر تراقب الوضع وعلى أهبة

الاستعداد لإفشال أي محاولة تسلل من اللاجئين..

كان هناك نساء وأطفال كُثر.. خُيل لخزامى أن الأعداد هذه المرة أكثر بكثير من المرة السابقة ولأن العدد كبير جدا.. اتفقوا مع المهرب أن يوصل دفعة أولى بالقارب ثم يعود مرة أخرى ليأخذ الدفعة الثانية.

يصعد إلى القارب أناس كثر ويمضي القارب بسرعة البرق.. وفي عرض البحر وبعد دقائق معدودة يُثقب القارب ويغرق أمام الجمع المنتظر على الشاطئ فيما أصوات الاستغاثة لا تكف عن جرح عتمة الليل.

عندما غرق القارب أمام نظر الجميع.. حدث هرج ومرج.. بعض الأحداث لا تسعها الكلمات لذلك كان الصمت هو سيد الموقف.. فما من كلمة تستطيع أن تصف ما حدث..

ما الذي حدث؟

غرق! توحش! ضياع بَوصلة هذا العالم.. لو جُمعت كل كلمات الأرض في كِفَّة وما حدث في كِفة أخرى لرجحت كِفة المشهد وكفى!

تمسك خزامى بأطفالها.. تقبض على أيديهم، تحمل الصغير يحيى وتدير ظهرها للبحر وتركض.. وتركض..

لقد تجمعت كل الأفكار والرؤى والأحلام.. .عند طرف فمها تشكلت كلمة واحدة فقط..

أسرِعوا.. أسرِعوا.. وانطبع المشهد الصارم في عيون الأطفال وأمهم..

تركض بيسان.. تلهث.. وعند زاوية عينيها تتضخم دمعة تأبى أن تسيل.. ما أشقى الإنسانَ حين تغور دمعته ولا يستطيع لها سبيلا..

وبصوت مرتعش تغني بيسان تلك الأغنية التي كانت تغنيها مع الطفلين أولاد خنساء تلك المرأة الأربعينية التي كانت معهم في الفيلا تلك الليلة التي سبقت الحادثة.

لقد كانوا طوال الليلة السابقة يلهون ويمرحون ويغنون..

تكتم خزامى صيحة عميقة.. تغطي فمها وتستعيد حكاية خنساء.. تهز رأسها مواسية:

«جئت إلى هنا وحيدة يا خزامى.. كل أهلي راحوا.. ماتوا لم يبقَ لي أحد.. زمان.. لم أكن قادرة على الحكي والكلام.. بقيت فترة طويلة ولساني مربوط لا أستطيع الكلام.. ليس من السهل أن تروي مصيبتك.. عندما تصلين إلى هذه المرحلة تكونين قد مِتِّ ألف مرة..

عندما تروين مصيبتك وكأنك تحركين دمك الساكن بملعقة.. فيتعكر من جديد!!

أخرجونا الشبيحة من منازلنا.. كنا أكثر من عشر عائلات في ذلك الحي.. معنا أطفال ونساء ورجال وبناتنا الصغيرات.. أمسكوا ابنتي وبنات الجيران.. خلعوا ملابسهن بالقوة وسط الشارع وعلى مرأى كل الناس اغتصبوهم ثم أطلقوا عليهم النار.. أُغمي عليّ ولم أعرف كيف وصلت الأردن مع أولادي الصغار.. هناك أخذوني على وكالة الغوث التابعة للأمم المتحدة وبدأت في أخذ جلسات علاج نفسي حتى استطعت أن أعود طبيعية!»

تقف خزامى فجأة.. تلقي نظرة سريعة على البحر وتصرخ صرخة طويلة...

خنساء.. .. خنساااااااااااااااااااااااااااااااء.

* * *

# ألم يأنِ أوان الحياة؟

بعد أن خطَت خزامى بأطفالها الأربعة عدة خطوات مولية ظهرها للبحر.. شعرت بملوحة البحر في فمها وكأنه اندلق في حلقها فأشعل ظمًا لا يُروى!!

حاولت أن تحرك لسانها.. أن تتكلم، لم تستطع.. لقد كانت تشعر بالماء يغمر فمها ويصل لسقف حلقها ويُعيق حركة لسانها فيما الملوحة تنبت الأشواك الواخزة داخل حلقها فيشتعل حريق لا يُطفئه ماء البحر.

ما الذي حصل في ثوانٍ؟

ألم يأنِ أوان الحياة بعد؟

تتلفت حولها.. تنظر للسماء بعين ذاهلة..

نظرت للخلف.. من بين الأعناق الهاربة المولية ظهرها للبحر أيضًا.. لمحت الأجساد الطافية وقد استكانت واستسلمت للموت.. تلك الأفواه الصامتة التي تمتلئ بالماء.. لقد كانت تمتلئ بعبارات الحرية.. تلك العيون المطفأة كانت تلتمع بالأمل قبل ثوانٍ فقط.. كل شيء حدث في ثوان.

الكل يركض ويتدافع وكأن البحر نار تلحقهم.. البحر الذي

تآمر مع الطغاة والجلادين والمهربين.. هيجان، أصوات متداخلة، لعنات تُصب فوق رأس المهرب (ابن الحرام) الذي اشتبك معه الرجال وكسروا زجاج سيارته واحتدّ الكلام بينه وبينهم.. حينها رفع السلاح ولاذ الجميع بالصمت.. إنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا.. فالجلادون يتكاثرون عندما يتكاثر الطغاة.

تخطو عدة خطوات ثقيلة وكأنها تتحرك داخل حفرة من طين.. تبتعد عن البحر.. تهدأ أنفاسها قليلا.. يتوقف هدير البحر عن اختراق أذنَيها.. لكن حشرجات الغرقى وصوت استغاثتهم لم تهدأ في أذنيها!! أيديهم التي يلوحون بها فيرفعهم الموج عاليًا تارة وينزلهم إلى القاع تارة أخرى.. تثقب عينَها.

كاد لسانها ينطق موجهًا أسئلة إلى الله..

لماذا كل هذا الوجع والقهر؟

ما الجدوى من كل الثورات والأموات؟

لماذا يخرج فرعون النفس الآن؟

ثم تستغفر الله فهي تعرف أن وراء موج المحن والمصائب سفن النجاة قادمة لا محالة.. وأن وراء الأمر حكمة لا نراها لكن العقل لا يستوعبها .

يا ترى لو حوّلت السؤال إلى القوارب.. لو سألت تلك

القوارب مما صُنعت.. أعتقد أنها سترد قائلة: «أنها صُنعت من جثث الغرقى وآهاتهم».

اختلط صوت الغرقى بصوت أخيها بديع.. سمعته يقول:

ـ لا حلَّ أمامكم إلا ركوب البحر.. كل الطرق مكلفة وغير آمنة..

صوت الأطفال والنساء الهاربين وصرخاتهم تشق عتمة الليل.. تركض خزامى معهم ودموعها تنساب من عينيها بصمت وكأنها تلوم نفسها أنها مازالت على قيد الحياة.. الكل يركض بلا هدف وكأنه لا نهاية للطريق.. حتى صرخ أحدهم فاستفاق الجميع من سكرتهم:

ـ هي كازية ومطعم.. تعالوا يلا يا شباب.. شم الجمع الهارب رائحة نجاة عندما رأوا الأضواء المنبعثة من المطعم.. الكل كان مرهقًا متعبًا والنعاس يداعب أجفانهم وكأنهم لم يناموا قط قبل ذلك..

دخلت خزامى إلى المطعم.. اشترت فطائر وماء لأطفالها ودخل الأطفال إلى الحمام.. كانت الساعة تقارب الثانية بعد منتصف الليل والمطعم يغلق أبوابه على الرابعة صباحًا، شحنت هاتفها، شبكت على الإنترنت وأرسلت رسالة لأخيها تخبره أنها لم

تصعد على القارب وأنها عادت أدراجها من حيث أتت وأنها ستخبره بالتفاصيل لاحقًا وستعاود الاتصال به ثم كتبت ولم تفكر ولم تعرف كيف كتبت:

ـ ياريت تدبر لي مهرب ثاني.. لازم أحاول مرة ثانية!!!

بعثت الرسالة ثم نظرت إلى ما كتبت من جديد وسألت نفسها.. هل جُنت؟ كيف ستعود إلى البحر من جديد؟

يرن في رأسها صوت حماتها وهي تخبرها قصة ذلك الصياد من أهل قريتهم (سمخ) والذي مات أبوه غرقًا في بحيرة طبريا وبعد أسبوع رآه الناس متوجهًا لصيد السمك.. فخرج الناس يحذرونه من ركوب البحر لئلا يحصل معه ما حصل مع أبيه.. مستغربين من قدرته على ركوب البحر مرة ثانية.. قال له أحدهم:

ـ كيف ستركب البحر وقد ابتلع أباك؟

نظر إليه وهو يضحك ملء شدقيه وقال:

ـ وكيف تنام على ذلك الفراش وتلك الوسادة التي مات عليها أبوك؟!!

الماء مازال يغرغر في فمها يمنعها من الكلام..

في الرابعة صباحًا أغلق المحل أبوابه.. البرد يأكل الأجساد والأطفال يصرخون.. كان هناك طفلان يتشبثان بذيل أمهما

ويصرخان بشكل هستيري وبعدما أغلق المحل أبوابه سادت العتمة وأصبح الليل كابوسًا لا ينتهي أبدًا.. اتحد صراخ الأطفال الهستيري ورجفانهم مع الرجفة الأخيرة لآلاف الأطفال في الغوطة قبل عدة أشهر.. عندما كانت خزامى تتابع ذلك المشهد على شاشات التلفاز.. حاولت خزامى أن تُبعد ذلك الكابوس.. كابوس الكيماوي.. لكنها عرفت أن الأمر ليس بهذه السهولة؛ فبعض المشاهد تُحفر كوشْم في الذاكرة!

فجأة لمح أحدهم صالة كبيرة بجانب المطعم.. صالة عارية تمامًا.. معتمة وباردة ولكن لا بأس.. المهم أن يجدوا مكانًا يأويهم هذه الليلة المعتمة.. حاول أحدهم أن يفتحها حتى يدخل الناس إليها.. لكن الصالة كانت مغلقة ولا يمكن الدخول إليها.. وجد أحد الشباب نافذة مفتوحة.. قفز إلى الداخل وفتح الغرفة وأشعل الضوء وأدخل الأطفال والنساء..

أحدهم كان معه بطانية كبيرة.. أعطاها للنسوة والأطفال.. تكورت خزامى وأطفالها على أنفسهم.. لم تكن تشعر بأطرافها.. أقدامها مبلولة ومغطاة بالطين.. الطفل الممسك بأطراف ثوب أمه بدأ يهدأ وتشنجاته خفتت.. البطاينة كبيرة غطت نسرين وأطفالها والنسوة الثلاث وأطفالهن.. اثنتان منهن كانتا يبكين بصوت مخنوق ومرعوب.. هي وحدها المرأة الثلاثينية بدأت تتكلم..

تلقي المرأة الثلاتينية ما في جعبتها دفعة واحدة.. متخففة من أوجاعها ولو إلى حين.. وكأن الواحد منا يعود خفيفًا بعد البوح.. ما السر يا ترى؟ ولماذا نسرع بالبوح للغرباء؟

فض صوت المرأة هدأة الليل وسكونه.. اقتربت المرأة أكثر من خزامى.. وقبل السلام عليكم والتعارف والسؤال عن الحال ومن أي مدينة أنتم؟ بدأت تلك المرأة تحكي وخزامى تنظر إليها بدهشة؛ فقد كان الكلام يندلق من فمها.. بينما فم خزامى مليء بأشواك العلقم.

«أنا الآن بعتبر حالي في الجنة.. كل حدث أمر به أهون من ذلك اليوم.. أحيانًا تتراكم الأوجاع والجراح بحيث يقلل بعضها من شأن الآخر.. تتراكم كما يتراكم الرمل في صحراء قاحلة فيزيدها عطشًا وشوكًا ولهيبًا..

يسقط شالها عن رأسها وهي تحكي.. فتسقط الحكايا تباعًا.. تغلق عينيها ثم تفتحهما وكأنها تريد أن تمحو مشهدًا ما!

لمحتُ الأجساد الطافية على الماء.. بعضها مازال يحاول النجاة والتعلق بالماء.. تذكرتُ ذلك الطفل الذي كان ملقى على عتبة المستشفى المقابل لبيتنا.. يخرج من فمه ما يشبه رغوة الصابون البيضاء.. كان يتخبط ويتقلب ويضرب رأسه بالعتبة كسمكة

خرجت لتوها من الماء.. يتقوس.. ثم يتمدد.. يرفع رأسه ثم يلقيه.. يحاول أن يجرجر الروح إلى الداخل.. يحاول أن يعيدها للجسد المنهك المزرق.. يضرب بأقدامه.. عيناه كأنهما بركتا دم.. الدم يسيل من أنفه.. لكنه في النهاية فتح فمه وعيناه على اتساعهما ولفظ أنفاسه الأخيرة واستكان الجسد إلى الأبد..

روحي كانت تصعد مع كل روح تصعد إلى خالقها..

تلك الليلة كانت كُحْلًا.. فلا نجوم ولا قمر.. استيقظت على صوت طرق شديد على باب بيتنا في الطابق الرابع.. كان جارنا يصرخ برعب:

ضربوا كيماوي

ضربوا كيماوي..

نظرتُ من النافذة.. الناس سكارى وما هم بسكارى.. الرجال يحملون أطفالهم.. رأيت أحدهم يجر بناته من أقدامهن ويجرّ أقدامه.. آخر يصيح ويطالب الناس بأن تصعد إلى الطوابق العليا وهو يحمل بشكيرًا مبلَّلًا بالخَلِّ لتخفيف آثار الكيماوي.. زوجي كان في المشفى.. رأيته من النافذة يمسك بخرطوش الماء يرشه على أجساد الناس الملقاة على الأرض ليخفف عنهم أعراض الغاز السام.. كان يصرخ ويصرخ:

الأتروبين نفد خلال عشر دقائق.. ما في شي نعمله.. ما في حل يا ناس..

أجساد الضحايا كانت تنتفخ بسرعة مذهلة.. أعداد الضحايا كان بالمئات.. لا بل بالآلاف.. منهم من يتقيأ.. منهم من يهلوس.. منهم من يتقلب ويرفس كخروف ذبيح لم يُكمل الجزار ذبحه فتركه يتلبط ويتفعفل بدمه..

هناك المئات الذين لم نرهم والذين تم اكتشاف موتهم داخل بيوتهم..

خرجت مع زوجي الطبيب الذي قام بجمع عينات من ثياب المصابين ومن الجثث بعد استئذان أهاليهم ووضعتُ العينات في كونتينر حافظ للبرودة مع ثلج.. كنا نريد أن نصل بسرعة إلى خارج سوريا حتى نفضح وجه الجريمة.. نريد أن نوصل العينات إلى أي سفارة أجنبية حتى تفحص العينات وتباشر بالتحقيق ولا يذهب دم الشهداء سدى..

عندما وصلنا للحدود التركية.. كان هناك مبعوث من السفارة الفرنسية.. أخذ العينات.

مرّ على الحادثة سنتان وعندما لم نسمع بأي نتائج.. راجعنا السفارة فأنكرت أنها استلمت العينات!!

لقد ضاع جهد زوجي وكل محاولاته لفضح النظام.. تكمل المرأة حديثها فيما آلاف الحكايا تشتعل في ذاكرة خزامى.. يزاحم بعضها بعضًا.. بعضه يعلو ويطفو وبعضه يغور..

تغفو خزامى وأطفالها ولا تصحو إلا على صوت هاتفها.. تمسك الهاتف لترى من المتصل..

تفرك عينيها.. تنظر مليًا.. إنه أخوها بديع من النرويج.

***

# المقابلة الصحفية

قرأت بيسان المقابلة الصحفية التي أجرتها صحيفة تركية مع أمها عشرات المرات!! كانت في حالة ذهول.. أكُلُّ هذه الأمور حدثت لأمها.. أخذت تُلصق الكثير من الأحداث بجانب بعضها بعضًا لتكوّن الصورة النهائية..

آثار الحروق والكدمات على بطن أمها وصدرها والتي رأتها بيسان صدفة وغطتها سريعًا ولم تُجب عن سبب ذلك!!

عدم وجود أمها في استقبالهم عندما خرجوا من المخيم..!!

الطريق الذي قطعوه وحدهم أطفالًا صغارًا!!

اتكاؤها على عكاز وانحناء ظهرها وتقوسه!!

انقطاع أخبارها لمدة ثمانية أشهر متواصلة مما أثَّر على حالة أبيها الصحية فازدادت سوءًا وتدهورت سريعًا..!!

صمتها غير المعتاد وهي منبع الحكايات..!!

إمساكها دومًا بقلم أحمر ودفتر صغير تدوّن عليه كلمات متقاطعة غير مفهومة وهي من تكتب بقلم رصاص دومًا..

كلام عمتها شادية المضطرب وتلعثمها وعرقها المتصبب وهي تروي حكاية أمهم!!

أطالت بيسان النظر في أمها الصامتة كنهر صاف مع أن الماء يمور مورًا داخله.. تنقلت بين وجه أمها واللقاء المنشور على الصحيفة التركية..

التفتت بيسان إلى الوراء قبل عشر سنوات حينما كانت طفلة صغيرة.. طرقت حكايات أمها الليلية أذنها وذاكرتها.. هاهي تندس في فراش أمها تتهيأ لسماع الحكاية نفسها..

«كنتُ طفلة صغيرة عندما سقطت أدوات الحلاقة من يد أبي في بيتنا في المخيم.. تزامن صوت هذا الارتطام بصوت مذيع الـ (bbc) الذي أذاع خبرًا مفاده اعتقال أحدهم وهدم بيته والحكم عليه بالسجن المؤبد لأكتشف أن المقصود بالخبر هو عمي شقيق والدي..

عندما دخل عمي السجن حرص أبي على إرسال رسالة شهرية له في سجنه عن طريق الصليب الأحمر.. كان أبي يكتب في الصفحة الأولى وتكتب أمي في الصفحة الثانية ثم نكتب نحن الأولاد الخمسة كل منا سطرين أو أكثر.. وهكذا عشقت الكتابة وعشقت فلسطين والجهاد والمقاومة..»

عندما كبرت بيسان قليلًا وكانت تلوم أمها على قضائها ساعات طويلة في القراءة كانت ترد وهي تضحك بدفء:

لو لم تكوني تملكين إلا فضيلة واحدة وهي القراءة فهذا يكفي!

نعم يكفي.. فالقراءة هي الممر الإجباري للإيمان والإبداع والتميز والراحة النفسية والوعي والحرية والكرامة..

لم تكن بيسان تفهم كثيرًا مما كانت تقوله أمها لكنها بالتأكيد عرفت أن القراءة ليست مجرد هواية نفعلها إذا أحببنا!!

أما عندما كانت تراها تطيل الكتابة وتراوغ الكلمات فتعترض بيسان فترد عليها قائلة:

«أكتب كي أتقرب للوطن وأقرأ كي أتقرب لله..

لا أكتب لأتسلى ولا لأستمتع.. أكتب لأقاتل.. فالحروف هي سلاحي والورق وطني.. أكتب لأحمي نفسي من العبث..

الكتابة بالنسبة لي رئة ثالثة أتنفس من خلالها بعدما امتلأت رئتاي بدخان التهجير القسري وحكايات الزنازين والنكبة التي لم أعايشها ولكنني رأيتها في المخيم

الكتابة هي التي تعيد الألق والبريق للحكايات المركونة في زواريب الذاكرة.. لذلك كنتُ أنا ذاكرة جدتي وأبي وأمي وحماتي لاحقًا..

كنتُ أجمع أحاديثهم المسائية وأهرب بها صوب الورق..

أرتب الفوضى داخلي وألمع الشوق مع كل حرف..

في لحظات كثيرة كنت أشعر باليباس والجفاف وكنتُ أتساءل هل جذوري المتيبسة الجافة قادرة على العودة والامتداد مجددًا في أرضها؟

هي لا تريد التمدد والاستطالة في أرض أخرى..

وكانت الإجابة دومًا بالقلم..

القلم كان مِحراثي الذي أنبُش به التراب.. أضع جذوري التي أوشكت على اليباس لتترطب وتستطيل..

الكتابة لفلسطين هي محاولة للإمساك بالوطن وزرعه في الذاكرة..

المخيم مليء بالحكايات ولهيب الوجع والانكسار والهزائم.. ويحتاج إلى خرطوش إطفاء..

القلم هو الذي يطفئ هذه النيران..

الكتابة هي محاولة لعيش حياة أخرى.. محاولة للفهم وتفسير ما يحدث.».

ولم تكن بيسان تفهم كثيرًا مما تقوله أمها عن الكتابة.. ولكنها كانت تعرف أن الكتابة هي التي تريحها.. فبعدما تنتهي من الكتابة

تعود رائقة وصافية.. وكأنها فعلت ما يتوجب عليها فعله وتنتظر النتائج فقط.

كانت بيسان تضحك عندما ترى نساء المخيم يسرعن ليرتدين أبهى ما عندهن بمجرد رؤيتهن لأمها!!

واكتشفت أن سبب ذلك هو أنهن يرَيْن أنفسهن بين سطور كلماتها.. في الحقيقة كانت تكتبهن!! كانت ترسمهن بدقة.. كانت صوتَهن الذي فقدوه.. هي من كانت تعيد ترتيب حكاياتهن..

لم تكن تحتاج للخيال كي تكتب.. فما كانت تسمعه من ختيارات المخيم جعلها تسخر من الخيال وتوقن أن في المخيم قصصًا تتفوق على الخيال.

أمها التي كانت نبع الحكايات.. هاهي تعرف حكايتها الجديدة من الصحف.. نظرت إلى الصحيفة جيدًا.. تنقلت بين أحرفها.. ومن بين ناصية الحروف تذكرت كيف كانت تتبادل الأدوار مع أمها فتندس خزامى في فراش ابنتها وتغمض عينيها وتبدأ بيسان تحكي حكاية ما قبل النوم..

إنها الحكاية نفسها كل مرة.. تستعيرها بيسان من حكايات أمها لتعيدها مرة تلو المرة.. تكتم بيسان ضحكتها وهي ترى أمها متكورة في فراشها كفتاة صغيرة تشتاق لسماع الحكايات.. ينبسط

وجهها وهي ترى اللهفة والشوق في عيني أمها.. كانت تجلس بيسان فوق رأس أمها وتقول لها أغمضي عينيك وهيّا نذهب إلى فلسطين..

سنشعل النار ونخبز خبز الطابون.. سنتمطى تحت أشجار الزيتون.. سنغفو قليلًا ثم نصنع الشاي على نار الكانون ونشربه.. سنتلقف حبات الزيتون الساقطة ونركض صوب الهاربة..

تمسح بيسان على وجه أمها.. تأمرها أن تفتح عينيها.. تقول لها..

لقد عدنا للمخيم.. تذهب الحكاية ويبقى حلم العودة ماثلًا أمام عيني بيسان..

فعليًّا ورثت بيسان مهارة الحكي عن أمها.. أمها التي لم تترك ليلة إلا وقصت عليهم حكايات الثورة والثوار.. أقدامهم الهشة الصغيرة التي تحولت مع حكايات أمهم إلى أجنحة تربط البراق وتضيء سماء الإسراء.. أحيانًا تتجذر أقدامهم في أرض قوية وصلبة فتدبك في أعراس البلد وتهاهي وتغني وأحيانًا يذهبون لبيت الجد الكبير ومصنع الصابون.. الجد الذي كان يركض قبل الفجر ليضع المال للثوار تحت أبوابهم ويفر هاربًا حتى لا يُكتشف أمره..

تتساءل بيسان بصمت وهي تتأمل وجه أمها:

ـ إذًا.. ما الذي تغير يا أمي؟ لماذا لم تكملي حكاياتك؟ لماذا توقفت؟

ارتعشت خزامى من نظرات ابنتها.. شعرت من جديد بنقر طائر ينقر رأسها وكأنها ميتة.. اكتفت بآهة وقالت بصمت:

ـ سامحيني يا ابنتي لا أريد أن أفجعكم.

خزامى التي كانت تتغنى بفلسطين وتكتب لها القصائد.. خزامى التي كانت تكتب عمودًا يوميًا قبل الثورة.. وكان النظام يتركها تكتب ما تشاء.. لقد كان يغض الطرف عنها عندما تكتب لفلسطين..

إنهم يدعمون الكلمات الثورية لأقصى درجة.. أما من يقترب من حدود فلسطين يُقتل ويُعذب..

تتغنى بالقدس.. تكتب لها القصائد.. هذا ما يريدونه منها.. وهكذا يريدها الطغاة.. مجرد قصيدة!

إن تحولت القصائد إلى خناجر والألحان إلى رجال يمتشقون السلاح حينها سيكون الجزاء هو القيد والكفن..

كانت تكتب لفلسطين، وكانت تتلمس في كل ليلة مفتاح العودة وترسم للقدس منارات وتمد صوب حيفا ويافا يدها والشوق ملامح عينيها!

لاحقت رصاصهم ذات اليمين وذات الشمال لأنها تعرف أن وراء كل رصاصة شهيدًا أو جريحًا.. وخلف كل رصاصة ضميرًا غائبًا وأخًا تنكَّر لدم أخيه!

كان قلمها هو الشعلة..

كانت تعرِّي القبح.. وتستغرب كيف يتحول الجمال إلى قبح والشرف إلى عار!!

كانت مشتبكة مع الاحتلال الصهيوني في مقالاتها.. فلما قامت الثورة ووقفت إلى صفها ونظمّت المسيرات المناهضة للنظام وأصبح النظام في مرمى قلمها أيضًا.. النظام الذي اعتقل وعذب وكسر أصابع الكتاب والرسامين ولاحق أصحاب الفكر والشرفاء.. حينها كان الثمن هو الاعتقال!

كلماتها التي كان يُحتفى بها وُضعت الآن على المِحك.. إما أن تحتفي بالطاغية وإما أن تدفعي ضريبة القلم، وبما أنها لا تقبل الابتزاز كان مصيرها الاعتقال والتعذيب.

كانت دومًا تقول:

«علام نصمت ونتنفس الخوف إن كان وعد الله «كن من جند الله يمدك الله بجنده»

ولأنهم كيانات كرتونية.. أرهقتهم امرأة تحمل قلمًا ويقينًا..

ولأنهم الوجه الآخر للاحتلال ترعبهم اليقظة.. يرعبهم من يحمل ذاكرة من لهب..

إنهم العبيد الجدد.. الذين يخدمون أكثر من سيد ويدينون بأكثر من دين.. فهم ينفخون أبواق الطغاة بالمجان.. ويستمرئون الذل ويتلذذون بالقيد فحتى لو كسرت قيودهم يعيدونها من جديد..

أغلقت بيسان جهاز الكمبيوتر بعدما أنهت قراءة اللقاء الصحفي مع أمها..

انزلقت في فراشها وهي تعيد قراءة سؤال الصحفي الذي سأل أمها: «كيف استطعتِ الهروب من النظام»؟

لم تغمض عينيها وهي تقرأ إجابة أمها..

«ساعدني على الخروج من سوريا مصور محسوب على النظام، يعمل في وحدة التوثيق لدى الشرطة العسكرية وهو الذي كان يصور ويوثق فظائع وجرائم النظام.. أتوا به ليصور الجثث.. كنتُ في الرمق الأخير وتوهموا أني ميتة..

أخذ يقترب من الجثث، يصور الأعين المقلوعة والأجساد المجرومة والجثث التي مايزال دخان احتراقها يصعد منها وجثت لا تظهر معالمها فقد غطت الكدمات والجروح والدماء ملامحها..

عندما اقترب مني ليصورني أمسكت بطرف بنطاله.. تأملني

طويلًا وكأنه عرفني..

بعدما انتهى من التصوير لحِق بالجثث إلى المستشفى.. قال لهم إنه يريد أن يكمل التصوير وهناك تم تهريبي وبعدها تم تهريب هذا المصور أيضًا حيث تمّ تنظيم جنازة وهمية له والتقينا في تركيا..

هو يحمل في جعبته بطاقة ذاكرة جمع عليها عشرات الآلاف من الصور ليدين بها النظام في المحافل الدولية وأنا أحمل أصابعي التي لم تُقطع لأروي من جديد ما رأيت وما تعرضت له أنا ورفيقاتي في السجون».

***

# كالفراش المبثوث

تقدمت صوب الشاطئ بضع خطوات.. تساءلت كيف سيكون شكل الخطوة الأخيرة صوب البحر؟

التفتُّ يَمنة ويَسرة.. رأت أباها يقف إلى جانبهم.. أيقظها صوته وهو يحكي مع أمها..

مع كل موجة تضرب الشاطئ وتلامس أقدامهما.. كانت التماعة تُشرق في أعينهما..

كم عدد الأمواج التي ضربت هذا الشاطئ يا ترى؟

هل هي بعدد البراميل التي قُذفت على المخيم؟

أم هي بعدد الذين قُطعت رؤوسهم ودُفنوا تحت الركام..

لا يهم عدد الأمواج الماضية.. المهم عدد الأمواج القادمة والتي ستحملهم إلى الطرف الآخر..

المهم أن لا تغدر بهم الأمواج وتبتلعهم كما كانت البراميل المتفجرة تبتلع أهل المخيم.. وتتركهم نتفًا!!

أمواج البحر أرحم من البراميل المتفجرة؛ فالأمواج تلقيهم على الشاطئ ولو بعد حين.. تلقيهم بكامل بهائهم دون أن ينقص منهم شيء!

تضرب موجة أخرى الشاطئ.. موجة باردة لاسعة فتسترد بيسان وعيها.. تتذكر أن أباها قد مات قبل عدة أشهر.

هل مات حقًا؟

هل مات فارسها ومولاها الذي يمنحها كتفه سندًا وصدره مرفًا؟

أبوها الذي تصنع له القهوة ليشربها على الشرفة ويصنع لها السفن المبحرة صوب حيفا ويافا وعكا..

كل موجة تضرب الشاطئ المعتم.. تطرح أسئلة تنكأ الأسئلة التي في جعبتها.. أسئلة عن سر الموت وسر حضور الأموات؟!

الأموات لا يذهبون بعيدًا إن كان لهم أحباب..

كانت سيدة عالمه.. كان يقطف لها النجوم وينثر لها الأحلام.. كان لها العمر بأكمله فلما ذهب.. لم يعد لعمرها معنى!

موت الأب جمرة لا تنطفئ.. هذه الجمرة تبقى مشتعلة طوال الوقت تشعر بلسعها دومًا.. قد تخفت قليلًا.. قد تهدأ نارها وتلوذ بالسكون.. لكن لا يمكن إطفاؤها أبدًا.. إنها تواصل اشتعالها في كل موقف وفي كل حدث وكلمة.. عند الوسادة.. وساعة الصحو من النوم.. يكون اشتعالها أقوى في بداية النهار ونهايته.. وفي لحظات العزلة والانكماش.. عند مصادفة أشخاص معينين..

من قال إن الآباء يموتون؟!

إنهم روح الحكايا.. أصلها وبدؤها.. إنهم لا يرحلون أبدا.. يتوارون قليلًا..

إنهم زمزم التي تفيض بجانب الأبناء في لحظات التيه والعطش فتحييهم وتُمنِّيهم بلقاء حتى لو كان بعيدًا..

الشاطئ مليء بالبشر الذين يرقبون دورهم في الصعود للقوارب.. لا أصوات وكأن على رؤوسهم الطير.. لا شيء سوى تمتمات اللاجئين وصوت هدير البحر..

لقد تعبوا.. تعبوا من كل شيء.. إنها المحاولة الثالثة للهرب في هذا الشتاء القارس.. كل موجة تنكأ جرحًا قديمًا وترسم على الرمل صورًا شتى..

ترتسم طائرة هيلوكبتر.. تظهر فجأة في سماء المخيم.. يصرخ مؤيد:

ـ ادخلوا بسرعة.. بسرعة إلى المطبخ يا أبي..

تكوروا، ضعوا رؤوسكم في حجوركم، احموا رؤوسكم بأيديكم.. وكانت هذه التعليمات التي يستمعون لها أربع مرات باليوم.. السادسة صباحًا.. والثامنة والعاشرة والثانية عشرة ليلًا..

هذه التكويرة اليومية كفيلة بإسقاط ألبوم صور الحياة أمامك

دفعة واحدة في ثانية.. في ثانية عليك أن تختصر حياتك وتقيمها.. أن تطرح أسئلتك العالقة للمرة الأخيرة..

في لحظات الاقتراب من الموت.. تحلو الحياة في عينك.. وتتمنى أن تكملها!!

الأجمل في هذه اللحظات المرعبة.. رغم صفير البراميل أن تجد إجاباتك.. تجدها عندما تشعر بأنك الأقرب إلى الله.. إنه معك.. في هذه اللحظة يُلقي الله في قلبك بردًا وسلامًا، هدوءًا وسكينة يتعاظم البلاء فتتعاظم معية الله لك.

البرميل يتدلى من السماء.. يبدو واقفًا وأحيانًا يبدو وكأنه أرجوحة.. تخاله سينزل على أم رأسك ويأخذك للهاوية.

يضج المخيم بالتكبير والتسبيح والاستغاثة والتوسل لله..

الموت الذي يأتي دفعة واحدة ولمرة واحدة هو الموت الأجمل والأرحم.. أما الموت الذي يأتي كل ساعة وكل ثانية بحيث تفقد ذاتك قطعة قطعة فهذا هو الموت الأقسى.. هو الذي يترك في روحك آثارًا لا تُمحى..

في هذه اللحظة تتجمد الحواس ويتعطل الإدراك.. والحدس مهما بلغ لا يستطيع أن يتنبأ باللحظة القادمة.. لا تستطيع أن تفهم الجدوى من الموت والحياة..

يتأرجح البرميل في السماء.. لا تستطيع أن تحدد أين سينزل!! فهذه الأسلحة غير موجهة.. ولا يستطيع أحد أن يتحكم بها أو يوجهها إلى مكان بعينه.. إنهم يلقونها ليحرقوا البشر والأرض.. هذا ما يسمونه سياسة الأرض المحروقة..

تعلمت بيسان أشياء كثيرة من حرب البراميل.. فحسب صوت الانفجار باتت تعرف إذا كان قريبًا أو بعيدًا وباتت تعرف مكونات هذه البراميل الممتلئة بمخلفات وشظايا الحديد والقوالب المعدنية والإسمنتية والمسامير وقطع الخردة ومادة tnt.. ومواد متفجرة وصاعق ميكانيكي.. أما الفتيل فهو الحقد..

إن الذي يلقي هذه البراميل هو شيطان؛ لأنه لا يختار ضحاياه..

صخب ما قبل الموت مرعب..

الناس كالفراش المبثوث.. إنهم يتراكمون.. يذهبون ويجيئون يصطدمون ببعضهم البعض ويحتارون ولا يعرفون في أي طريق يذهبون.. لا شيء يقتلهم في لحظة كهذه كالحيرة.. فقد يكون الطريق الذي تختاره هو الموت بأم عينه.. تختاره أنت بملء إرادتك.

للبراميل المتفجرة أوقات للنزول.. وكميتها دومًا زوجية.. تبدأ من أربعة براميل وتصل لعشرة براميل في كل جولة..

هذه الأوقات والكميات أعطت قوانين.. فموسم الموت وقوانينه باتت واضحة يعرفها الجميع..

الموت لا ينتهي.. تعرف بيسان ذلك.. لكنها وهي تقف على الشاطئ الآن توقن بأن الحياة لا تنتهي أيضًا..

البرميل يتأرجح في السماء.. لوهلة تظن أنه يقف.. يفكر.. يتأمل ليختار أين سينزل؟

بين الموجة المتأرجحة والبرميل المتأرجح مسافة طويلة لكنها قصيرة في إرادة الموت..

تحدق بيسان به.. صوت صفيره يذكرها بصيحة السماء التي تترك الناس أعجاز نخل خاوية..

يهوي من السماء إلى قرار عميق.. يُخلف هوة عميقة في روحها.. هوة لا يستطيع أحد أن يراها أو يلمسها.. إنها أكبر من أن تُحتوى بيد.. صوت الصفير المرعب يمزقك نتفًا صغيرة.. تحتاج عمرًا إضافيًا لتلملمها..

بدا البرميل وكأنه توقف لوهلة في الهواء.. أصدر صفيرًا مرعبًا استمر لدقيقة ونصف بدت وكأنها دهرٌ.. ثم أخذ يهوي بسرعة إلى أسفل.. أي أسفل يا ترى؟

إنه ما زال يهوي ويزعق ويجلجل لا صوت إلا صوته.

تسمع صوت جارتهم تصرخ:

يا رب.. يا كريم.. يا عظيم.. يا رحيم.. وراي أطفال أيتام.. بلاش أنا وولادي.

يسقط البرميل.. يبدو وكأنه قريب جدًا.. والغبار الكثيف يحجب الشمس والسماء والوجوه.. يمتلئ فم مؤيد بالتراب.. إنه يسْرُك بين أسنانه.. السماء تمور مورًا.. الصيحات تتوالى من السماء فيما البراميل تزداد وقاحة.. كل برميل هو بصقة في وجه الإنسانية.

يتحسس مؤيد طريقه؛ فعينه امتلأت بالتراب.. يبصق التراب من فمه.. يختنق.. يسعل.. ألم شديد في ظهره.. يشعر بأنه انسحق مع أنه كان محدودب الظهر عندما شعر بالشظية تمر من فوق جسده.. أحدهم ملقى بجانبه يتلوى كالأفعى غير أنه يتلوى من الألم فقد خرجت أحشاؤه وتدلت بجانبه.

العمارة التي بجانبهم سُويت بالأرض تمامًا.. أخدود كبير جدًا مشتعل بالنار يشق الشارع إلى نصفين.. رائحة شواء جلود تنتشر في المكان.. أطراف بشرية تتناثر كحبات القمح.. بعضها يلتصق بالشارع وبعضها يذوب وينصهر.. بعض الجثث مازالت تشتعل وتحترق.. طفل يصرخ وقد وقعت شظايا البراميل على أقدامه فقطعتهم .

ـ بابا احملني دخيلك.. ما عاد أقدر أمشي..

يلملم مؤيد أولاده.. صدره يكاد ينخلع.. ظهره مقوس محدودب لا يستطيع أن يرفعه.. أقدامه تحمله بصعوبة.. لا يعرف ماذا حدث.. يعتقد أنه بقايا الركام والرمل الساخن.. إنه ألم شديد.. نظرت بيسان إلى أبيها في هذه اللحظة.. أحسته يتهشم كقطعة زجاج إلى فتات.. تعرف أنه يبتلع وجعه حتى لا يخيفهم!

ألسنة اللهب تتعاظم.. إنها تصل لعنان السماء.. هناك لسان لهب طويل لم ينطفئ ولم يخفت.. لقد رأت بيسان هذا المشهد سابقًا.. آه تذكرت..

تذكرت جدتها مهجة وهي تحكي عن لسان اللهب العظيم الذي لم ينطفئ في قريتهم لثلاثة أيام متواصلة.. بعد ذلك فهمت أن الصهاينة ألقوا قنابلهم على قطار يمر ببلدتهم (سمخ) فاشتعل القطار ولم ينطفئ.. تنظر إلى المخيم وكأنها تنظر إلى فلسطين التي ستضيع مرة ثانية..

أصلًا ولفترة طويلة جدًا.. كانت تعتقد أنها تعيش في فلسطين.. كانت تحفظ كل أسماء الشهداء والقرى والبلدات.. لم تعرف أنها في مخيم أبدًا!! المخيم هو فلسطينها.. فلسطينها التي تقضي فيها السهرات العائلية وتتدحرج على ترابها وتركض على

شاطئها وتجمع الأصداف وترسم العلم وتغني وتدبك الدبكات الفلسطينية..

لم تكتشف أنها في مخيم للاجئين إلا عندما وصلت إلى مرحلة متأخرة من الدراسة !!

أيُعقل أن يصبح المخيم وطنًا آخر؟ نعم لقد أصبح وطنًا آخر!!

أتدري لماذا ؟

لأنه مليء بالشهداء وهم من يمنحون المخيم بهاء الوطن وخضرته.. المخيم هو وطن المكروبين والموجوعين، المخيم هو الوجه الحقيقي لضمير العالم المزيف!

عندما تسكن المخيم يسكنك بكل ما فيه.. يسكنك هو والوطن.. فتصبح بوطنين.. فيستكثرون عليك ذلك ويسلبونك الاثنين معًا، وما أقسى أن تفقد وطنك مرتين!!

خطوة أخرى نحو الشاطئ وموجة أخرى.. ترسم صورة أخرى..

ترى تلك المرأة الستينية التي يخرج شعرها الرمادي من وراء حجابها.. تجلس على رصيف وفي يدها بقجة ملابسها.. أيديها سوداء مشحبرة.. وجهها أصفر كالكركم.. الملابس على جسدها

وكأنها معلقة على علاقة ملابس! تنظر للمارة ببلاهة وأحيانًا تركز في وجوه المارة وتسألهم عن ابنها..

تلتقي عيناها بعيني بيسان.. ينهمر الدمع..

كانت لا تود اللقاء بها ولا الحديث معها.. فماذا ستقول لامرأة عجوز قتلوا ابنها ثم قطعوا رأسه ووضعوه عند دوار الرؤوس بالمخيم؟!!

أتوا بأشبالهم ليأخذوا صورًا مع الرؤوس.. يحملون الرأس من شعره ويأخذون صورًا تذكارية معه.

كان ابنها متطوعًا في الهيئة الخيرية لإغاثة الشعب الفلسطيني.. قتلوه ثم قطعوا رأسه.. أمه لم تُرد شيئًا سوى أن ترى جثة ابنها مع رأسه.. تدفنه وتزوره.. عندما رأت أمه صورته وقد انتشرت على الإنترنت جُنت..

ذهب مؤيد إلى أحد الفصيلين اللذين كانا يتحكمان في المخيم.. استقبله أميرهم الذي كان يكشف عن وجهه وتغلي عيناه كالبركان.. حاول أن يتذكر أين رآه قبل ذلك!!

حوله مجموعة من الحراس المقنعين بأقنعة سوداء. القناصة ينتشرون في المكان يستعدون لأية أوامر.. أخذ ينظر في الوجوه المغطاة.. يتأمل العيون.. إنها عيون لأطفال وشباب زُج بهم في

أتون معركة ليست معركتهم.. عيون مستسلمة وحزينة!!

حاول مؤيد أن يتذكر وجه الأمير المحاط بالمسلحين.. قطَّب جبينه.. نقر رأسه أكثر من مرة.. شهق عندما تذكر.. .إنه حرامي المخيم!! كيف صار أميرًا لفصيل يدعي أنه فصيل إسلامي؟!!

عرف مؤيد أن النظام هو الذي أخرج كل المرتزقة والمجرمين من سجونه ونصَّبهم قادة للفصائل العسكرية المتطرفة التي تتحكم بالمخيم وبغيره.

لماذا أطال لحيته وشعره المجعد؟؟؟ من أين أتى بكل هذه الأسلحة والمسلحين وسيارات البك أب؟ كيف بنَوا كل هذه السواتر الترابية؟ كيف تقاسموا المخيم؟

إنهم كالعهن المنفوش.. نفخهم الصهاينة ومن والاهم.. ثم وفي أي لحظة يفرغونهم ويصبحون مجرد خِرق بالية لا تثير الخوف ولا الرعب..

كانت الفصائل والرايات تملأ سماء المخيم.. المخيم الذي بُني في عام ١٩٥٧ ليحتضن اللاجئين الفلسطينيين..

لا يدري مؤيد كيف تناسلت هذه الفصائل.. كيف صار المخيم بين ليلة وضحاها مرتعًا لأكثر من اثني عشر فصيلًا كلهم يصوبون بنادقهم صوب الجياع والعُزل في المخيم؟!!

النظام يقصف المخيم ببراميله وصواريخه وطيرانه بحجة داعش وتنظيم الدولة وبقية الفصائل !!

من الذي موّل داعش؟

من الذي أدخل لها السلاح؟

من الذي حمى ظهرها وزودها بالمال والذخائر؟

رأس هذه الفصائل هو الصهاينة وذيولهم هنا في مخيم اليرموك.. هذا ما توصل له مؤيد..

الفصائل في الداخل تُجهز على آخر رمق في الضحية.. فالمخيم الذي كان يضم أكثر من ١٨٥ ألف فلسطيني لم يبق منهم سوى بضعة آلاف!!

هاهي سيوفنا تقطع رؤوسنا.. حين يحملها شقي لا يعرف بوصلة قلبه..

سيف النظام كان له أسبقيات مع مخيمات الفلسطينيين.. فهو الذي ساهم في تدمير مخيم تل الزعتر وضبية عام ١٩٨٥ وهو الذي مدّ يد العون لحركة أمل لتشن هجومها على مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة..

وهو لن يتوانى عن تصفية آخر قطرة دم فلسطينية في مخيم اليرموك خدمة لربه الأمريكي وربيبته إسرائيل..

العودة حق والحق فكرة متجذرة في الرأس والفكرة تحتاج إلى حراس وأرض خصبة حتى تتجذر؛ لذلك كان لابد من تصفية حق العودة نهائيًا ومحو أكبر عاصمة للاجئين الفلسطينيين وأعظم وأكبر شاهد على نكبة ١٩٤٨.

هذا النظام وكل الأنظمة المحيطة بالاحتلال الإسرائيلي هي سوار يحمي ظهر إسرائيل من الخارج..

هذا النظام هو يد الاحتلال التي يبطش بها وعينه التي يرى بها..

لقد ضمن الإحتلال جبهة داخلية آمنة وهادئة ومستقرة من خلال السلطة الفلسطينية والتنسيق الأمني.. وهو لا يدفع ثمن احتلاله للأرض والتاريخ والجغرافيا.. إنه احتلال آمن..

وضمن في الوقت ذاته جبهة خارجية آمنة حامية له متمثلة بهذه الأنظمة ومن ضمنها النظام السوري.. النظام السوري صمام أمان للاحتلال؛ لذلك ستقف أمريكا ودول الغرب ضد الثورة السورية..

ذهب مؤيد إليهم مع مجموعة من الشباب يتوسلونهم أن يُرجعوا الجثة والرأس فاشترطوا عليه أن يذهب إلى الفصيل الآخر ويأتي بجثثين ورأسين أيضًا! مما يعني عملية تبادل جثث.. بعد

مماطلات ومناقشات وذهاب وإياب بين الفصيلين. خرج أميرهم المزعوم وأعطاهم رأسين بدون جثت.. أخذهم مؤيد ورفاقه إلى الفصيل الآخر فقالوا:

ـ نريد الجثت.. لا نقبل رؤوسًا بدون جثث!!

عادوا وأخبروهم بالطلب وتفاجأ مؤيد أنهم قد أضاعوا الجثت.. لكنهم نبشوا قبرين واستخرجوا جثتين ..وذهبوا بهما إلى الفصيل الآخر.. حينها سلموهم جثة الشاب ورأسه! خاطوا الرأس بالجسد وذهبوا به إلى أمه.

***

أمها تنادي عليها.. تقطع حبل الذكريات وتذهب لأمها.. تجزم أنها حين تصل إلى الضفة الأخرى من البحر بأنها.. ستنظر للحياة بشكل مختلف.. ستستمتع بكل لحظة.. ستتكور في فراشها كما كل البشر.. ستشرب الشاي على الشرفة والدها. ستقرأ معه كل الكتب التي وعدها أن يقرأها معها.. ستستيقظ صباحًا وتنفض كل الأحزان وتمحو كل الصور.

تتساءل بيسان:

كيف نكبر يا ترى؟

هل نكبر بمرور السنين؟

أم أن هذا يحدث نتيجة موقف ما.. أو حدث ما.. وفي رمشة عين؟!!

في الليل ستأتي سيارة أجرة لتأخذكم من الفندق وتوصلكم إلى الشاطئ، القارب سيكون جاهزًا.. لا تقلقوا فالقارب كبير جدًا مساحته خمسة أمتار ولن نأخذ معنا في الرحلة سوى عشرين راكبًا فقط!

الرحلة لن تستغرق الكثير من الوقت فقط ٣٥ دقيقة وستكونون في إحدى الجزر اليونانية، القارب جديد والماتور سريع وعندما تصلون إلى الجزيرة ما عليكم إلا اجتياز الجبل حتى تصلوا إلى مركز الشرطة هناك وتسلموا أنفسكم..

المهرِّب يحكي وخزامى وأولادها ينصتون وكأن على رؤوسهم الطير!!

وكما يحدث في كل مرة تهُمُّ فيها أن تضع أقدامها على القارب.. تخرج ندفة من ذاكرتها.. ندفة كندفة الثلج.. بيضاء، لامعة.. باردة ولاسعة.. تلسعها وتوقظها، ندفة تسقط وتذوب في ثوان..

لكن هذه الندفة مختلفة.. فقد بقيت ماثلة أمام عينيها.. كان الموج يعلو ويعلو.. القارب يهتز ويميل وأحيانًا يبتلعه الماء ثم يقذفه إلى الأعلى.. القبطان يصيح ويأمر الجميع بإلقاء الحقائب

والحاجيات الموجودة في مقدمة القارب ومؤخرته في البحر.. يصيح مرة أخرى ويطلب من الشباب الماهرين في السباحة بالقفز واحدًا تلو الآخر؛ حتى يتوازن القارب ويستقيم فالقارب يوشك على الغرق..

قفزوا فعلًا كما طلب منهم القبطان.. رسموا بأجسادهم دائرة حول القارب الذي اختلّ توازنه وأوشك على الغرق.

النساء والأطفال في حالة ذهول ورعب.. جاءت الأوامر الأخرى من القبطان للنساء والأطفال بالجلوس في أماكن محددة من القارب حتى لا يختل توازن السفينة.. انصاعوا بسرعة للأوامر..

اتخذت النساء أماكنها بسرعة.. بعضهن كانت تمسك بسطل وتعبئ به الماء وتلقيه في البحر.. بعضهن تسمَّرن مكانهنَّ لا تعرف ماذا تفعل.. أخريات بدا أنهن سيلطمن وجوههن، وأخرى بدت وكأنها جُنت؛ فقد كانت تردد كلمات غير مفهومة.. تنظر وكأنها تتابع كابوسًا..

الماء بدأ يتسرب بسرعة إلى القارب.. النساء يلقين المناشف على أرضية القارب.. ولكن الماء كان أسرع منهن.. اختل توازن القارب وانقلب وتناثر الأطفال والنساء كحبات الخرز على صفحة الماء..

القارب بدأ يغرق رويدًا رويدًا.. الأخشاب أخذت تتسلل من القارب.. كل غريق بدأ يمسك بخشبة من الأخشاب التي قد تطيل أمد حياته ساعة أو ساعتين.. لا أحد يعرف!

البحر من فوقهم ومن تحتهم وعن أيمانهم وشمائلهم.. تتابع خزامى الشاب الناجي بأذنيها وعينيها وهو يروي حكايته..

«بقيتُ أعوم في الماء لمدة سبعة أيام.. أتمسك بقشة.. قشتي هي تلك الخشبة التي تخلخلت من السفينة فأمسكتُ بها ومنحتني عمرًا فوق عمري!

الموج يعلو ويهبط.. يرفع ويُخفض.. لم تكن الساعة قد جاوزت الثالثة ليلًا.. الموت في ذروته..

الشباب يصرخون طوال الوقت.. كل واحد منهم يسأل جاره الذي يبعد عنه عشرات الأمتار عن زوجته وأطفاله.. تتداخل الأصوات.. هل رأيت محمد، مروان، عمر، هبة، غدير، شام.. يا ناس بنتي حدا شافا؟ أخي؟ مرتي؟

أغوص ثم أصعد.. لأجد الكثير من الجثث الطافية حولي.. الأحذية.. بُكل الشعرللصغيرات.. رضاعات الحليب.. رسائل.. ودفاتر وصور.. عندما أرى الجسد وقد انكبّ على وجهه أعرف فورًا أن الأمر قد انتهى..

أصوات طائرات تعلو.. يزداد صراخ الجموع.. يلوحون.. تُبح أصواتهم.. يفقدونها.. لا أحد يراهم!

القيامة!!

هل قامت القيامة؟؟

هل ستقوم في البحر؟

هل حان وقت الحساب؟

لاااا لم يبدأ بعد!!

الجنة لم تفتح أبوابها بعد للصابرين والمظلومين والمعذبين.. والنار..

النار لم تبتلع الفجرة والطغاة والظالمين..

فجأة سمعتُ صرخة مرعبة لامرأة!! ظننتُ لوهلة أن سمكة قرش قد قضمت جزءًا من أطرافها.. سبحت صوبها لأجدها تصارع الموج وتحتها خيط رقيق من الدم.. وأمامها طفل وليد مربوط بحبله السري.. تخبط الماء بذراعيها.. تلحق بوليدها لتمسكه!!!

تذوب الندفة تمامًا.. ينقطع الصوت.. لا تدري أين ذهبت بقية الحكاية.. لتندفع ندفة أخرى فيها المهرِّب يسترسل ويكمل تعليماته:

ـ لن أصحبكم في القارب.. سأدرب أحد الشباب من حماة على قيادة القارب المطاطي مقابل خصم من المبلغ الذي سيدفعه..

سيستخدم(Gpc) سأعطيه سكينًا كبيرة بحيث لو اقتربت منكم الجندرمة.. أو خفر السواحل اليونانية قبل الوصول يثقب القارب بسرعة.. حينها سيضطرون لإنقاذكم وعدم إرجاعكم للسواحل التركية.. أما إذا بقي القارب سليمًا فقد يعيدونكم إلى الجانب التركي وتفشل المحاولة وتذهب أموالكم ومحاولتكم الهرب أدراج الرياح.

النُدف ما زالت تتوالى..

تلسع توسوس كالشيطان.. تهمس في أذن خزامى:

لا تركبي البحر..

ماذا ستفعلين بنفسك وبأولادك؟ أتذهبين بهم إلى التهلكة بيديك؟

تحاول خزامى أن تزيح المشاهد عن عينيها..

الهرب من الموت.. موت آخر!!

فقد تهرب من موت متعدد.. يتكرر في كل لحظة وثانية.. لتختار موتًا سريعًا حاسمًا!! هذا هو الفرق بين موت البر وموت البحر.

كلما اقتربت خزامى من البحر خطوة.. كلما زال الغبش عن عينيها أكثر وأكثر وتدافعت المشاهد والحكايات.. وكأن رذاذ موج البحر يجلو ماعلق في ذاكرتها ويزيل عنها الرّان فيغدو كل شيء واضحًا لا مواربة فيه.

ومع كل ذلك.. ليس أمامها إلا البحر.. ستركبه وأطفالها الأربعة؛ فهو وحده الذي قبلهم بلا قيد ولا شرط.. هو وحده الذي فتح ذراعيه لهم دون جوازات سفر ولا وثائق ولا أوراق تبوثية.. قد يكون البحر فخًّا.. فخًّا مدفوع الثمن!!

يقول المهرِّب لخزامى:

ـ راعيتكم كثير خيّتا.. ويشهد الله إني شفتكم ناس محترمين ولولا الزمن جار عليكم ما طلعتو.. علشان هيك رح أطلعكم بقارب لسه ما حدا ركبه.

تنظر إليه متعجبة وتقول:

ـ الناس يصرون على دفع ثمن الموت!! لا أدري لمَ لا يعجبهم أن يموتوا موتًا غير مكلف!

هناك في المخيم يفيض القهر.. يجف الحليب في صدور الأمهات، تُمزق ثياب العيد للصغيرات.. يختلط طبشور المدارس بدخان البراميل..

هنا في البحر.. كل لاجئ يلقي جزءًا من روحه للبحر.. كل موجة هي حكاية حزينة أودعها غريق تعلق بقشة! الريح تزمجر.. تصفع فيعلو موجه ويعصف.. الهلع يطفئ لمعان العيون.. الكل يقدِّم رجلًا ويؤخِّر الثانية..

ينادي عليهم المهرِّب أن يتهيأوا للصعود.. لسيارة الأجرة..

تحمل بيسان علبة حديدية ملأى بالصور والبطاقات والرسائل الصفراء المهترئة.. صور بالأبيض والأسود من أيام فلسطين وما قبل النكبة.. صور ملونة حديثة.. صور لبيت جدها في حيفا.. صور للمخيم في بداية نشأته.. رسائل جدها لأخيه في سجنه ومقالات أمها..

طابو بيتهم في فلسطين ومفتاحه.. طابو بيتهم في مخيم اليرموك ومفتاحه.. شهادات ميلادهم..عقد زواج أمهم وأبيهم ..

تصعد العائلة إلى سيارة الأجرة.. تفتح بيسان العلبة.. تفك الحبل المطاطي الذي يجمع الرسائل.. تبدأ بالقراءة وبصوت عال حتى تغير الجو القاتم الذي يخيم عليهم..

**١٩٧٥/١/٢٥**

**الأخ الحبيب عبدالله..**

أحييك أجمل تحية وأسأل الله أن تصلك رسالتي وأنت في

صحة جيدة.. لقد وصلتنا رسائلك الثلاثة الأخيرة وها أنا أجمع كل الأقارب وأولاد العم أبا هشام وأبا سامر وأبا باسل.. كلنا مجموعون ونقرأ رسائلك وندعوا لك بالفرج القريب العاجل..

لقد استلمت هديتك القيمة التي أرسلتها مع الأخ نايف وهي عبارة عن مسبحة جميلة بألوان العلم الفلسطيني ومسبحة أخرى من نوى الزيتون.. واحدة أحملها دومًا في يدي لأظل أتذكرك والأخرى تحملها أمنا تسبح بها وتدعو لك..

وقد فرحت البنات (خزامى وحنين) أيما فرح بالأساور والسلاسل الخرزية.. البنات يلبسن الأساور ولا يخلعنها أبدًا.. كما أن أمك تلف المسبحة على يدها ولا تلقيها أبدًا حتى وقت النوم..

لقد وصلني قبل أسبوع أربع تنكات زيت زيتون من فلسطين.. البيت كان خاليًا تمامًا.. فلا يوجد ولا قطرة واحدة! زيت وزيتون فلسطين لا يقارن بأي زيت!

إخوانك وأخواتك وأمك وأبوك وأولاد عمك والجميع يهدونك السلام..

**ملحوظة..**

وأنا أكتب والأولاد جميعًا متشوقون وينتظرون أن أفرغ لكي يبدأوا بالكتابة لك.. كما اعتادوا كل شهر.. لذلك أترك الصفحات

القادمة لهم.. على أمل اللقاء بك قريبًا..

تنزل بيسان نظرها قليلًا.. تكمل قراءة بقية الصفحة.. يبدو أن أمها هي التي تكتب الآن.. عرفت ذلك من خطها الذي لم يتغير.. يبدو أنها في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها.. يبدو ذلك من أسلوب الكتابة..

العم الحبيب الغالي.. كيف الصحة.. إن شاء الله تكون بخير.. نحن لا ينقصنا شيء سوى مشاهدتك والتحدث معك.. أشتاق لليوم الذي ستخرج به من الأسر لنتحدث طويلًا.. أنا مجتهدة ومتفوقة في دروسي وكذلك حنين ومحمد وحمزة.. محمد أخذ الشهادة وهو متفوق.. أبي يقول عني أنني شاطرة في الكتابة مثلك.. مشتاقة لك جدًا..

خزامى..

تنزل قليلًا لتقرأ ما كتب خالها حمزة وخالها محمد.. وخالتها حنين وجدتها..

تعود لتفتح العلبة.. فترى السلاسل والأساور الخرزية.. أساور لامعة وشفافة بألوان العلم الفلسطيني الأخضر والأحمر والأسود والأبيض..

تسأل خزامى ابنتها بيسان عن ذكرياتها عن هذه الأساور..

تقول بيسان.. نعم إنها تتذكرها جيدًا..

«أتذكر أنني كنت ألبسهم عندما كنتُ في الصف الأول.. لم أكن أعرف أن هذه السلاسل والأساور لكِ أصلًا وأنها من صنع عمك في أسره!

وماذا تذكرين أيضًا..

أتذكر ستي وهي تمسح الغبار عن برواز قبة الصخرة المشغول بالخرز الملون بألوان العلم الفلسطيني أيضًا.. كان البرواز معلقًا في صدر البيت.. كانت تمسح البرواز كل يوم وتقول: «هذا من ريحة الأحباب وريحة البلاد.. »

أتذكرها أيضًا وهي تجمع الجارات بعد العصر.. يشربن القهوة على الشرفة وكل واحدة منهن تحكي عن أهلها وبلدتها.. ستي كانت تتحدث عن أبيها كثيرًا.. أبيها الذي كان يساعد الثوار ضد الإنجليز.. كان أكبر تاجر صابون في المدينة.. يتنقل بين حيفا ونابلس.. كان يدعم الثوار ويضع لهم المال تحت الأبواب ليلًا.. ثم يتسلل حتى لا يعرفه أحد».

ألا تتذكرين عندما طلبتِ منا أن نشتري لك قبقابًا مثل قبقاب ستك؟

ضحكت بيسان..

أذكر أنك اشتريتِ لي قبقابًا من سوق الحميدية..

يقطع السائق الحديث.. يقول لهم:

لقد وصلتم إلى الشاطئ.. هيا انزلوا.

تنزل خُزامى من سيارة الأجرة.. تسير بصحبة أطفالها صوب الشاطئ المكتظ بالأجساد الناحلة والعيون الغائرة والعظام النافرة.. أطفال رُضَّع وأمهاتٌ صغيراتٌ وأمواجٌ صاخِبة غاضبة ..خطوة للأمام وعشْرُ خطْوات للخلف ..

الأرض تهتز تحت أقدامهم وكأنها بساط عتيق فاخر يسحبه أحدهم فيتعثرون ويقعون ..

تتوشح السماء بالسواد الحالك وتذرف المطر الحزين ..الفضاء فسيح أمامها إلا أن الهواء عزيز.. تشعر خزامى في هذه اللحظة وكأن منديلًا غليظًا خشناً يلتف حول عنقها ويطبِق عليها فتختنق..

البرد يقص المسمار ويقص أطرافهم النحيلة.. إنه كمنجل يحصد أيديَهم وأرجلَهم ويتركها كعود ناشف لا دمَ فيه ولا حياة !!

الجموع مختبئة خلف الأشجار الكثيفة قرب الشاطئ حتى لا تراهم الجندرمة التركية التي تقف وتترصد اللاجئين في عَرْض البحر ..

تنتشر رائحة صمت مريب.. رائحة تشبه رائحة البيض الفاسد.. الجموع المنتوفة الريش تكاد تسمع صوت رعْشات قلوبهم وهي تصطك بعظامهم .

تتّنقل خزامى بنظراتها مابين البحر الهائج والجموع الخاسرة.. التي خسرت كل شيء ولم يبقَ لديها سوى ماض بعيد يشغلهم بصوره.. وبعض العمر المتبقي !

تحدق خزامى في الناس مليًّا.. تدرك ولا تدرك ما يحصل.. الزحام شديد والصمت وحش يأكل الوقت ويقضِم الحواسَّ والوجوه شاحبة ..

تدير خزامى ظهرها للبحر وهي تكُزُّ على أسنانها وتنطق: لن أعود إلى هنا ثانية.. ما الذي أتى بي إلى هنا ؟

تبقى الكلمات حبيسة فمها وتستقر في حلقها فتختنق .

لم تعرف كيف عادت إلى البحر مرة ثانية.. تلتفت إلى الصوت الذي ينادي عليها وعلى أطفالها تهرول مسرعةً صوب المهرِّب الذي أتى بقاربه المطاطي ..هاهو يدعوها للصعود .

تمشي سريعًا.. لا يفصل بينها وبين هذا البحر الصاخب إلا بضع خطوات وحزمة ذكريات تتعربش رأسها (نكبتين.. وتهجيرين قسريَّتين.. وبيتين ومفتاحين وجرحين كل منهما يسيل

على الآخر فيزيده عمقًا ووجعًا)

هاهي تمشي ذات الطريق الذي مشى فيه أجدادها ذات نكبة.. قبل سبعين عامًا.. إنها تبتعد سبعين عامًا أخرى!! أيعقل أن تبتعد سبعين عامًا أخرى عن فلسطين ؟؟ أم ستكون سبعة أعوام.. أم سبعة أشهر.. أم سبعة أيام.. إنها سبعٌ شدادٌ.. بعده يُغاثُ الناس فيه ويعصِرون ..

قد تكون سبعًا شدادًا يقرِّبْنها إلى فلسطين ..

لأول مرة ستركب البحر.. البحر الذي كان سيِّدًا لحكايا الليالي الممطرة والمقمرة.. البحر الذي سبحت فيه مع أجدادها ذات حلم .. البحر الذي تمطَّت فوق شاطئه وغاصت أرجلها في ترابه وتلقفت أسماكَه من شباك الصيادين ..

هل تفرح ؟ أم تحزن ؟

هل تولِّي هاربةً ؟ أم تدُكُّ أقدامها كوتَد في الأرض ؟

أم تخلع أقدامها وتلقي بنفسها في البحر الهائج ؟

موجة صاخبة وعالية.. أتقدر موجةٌ أن تحلق بها وتطير صوب حيفا ؟؛ فالبحار متصلة !!

من يدري لعل هذا البحر يقربها من فلسطينها أكثر !

هل مازالت تشعر بجسدها الذي لم يبق فيه موضِعٌ إلا ونهشته

سيوف الغدر والجوع والتعذيب ؟

إنها لم تعد تشعر بشيء.. لقد تخدَّر جسدها وتنَمَّل.. عندما يشتد الألم ويتسع.. ينطفئ الجسد ويصبح كقطعة قماش بالية لن يفيد فيها الرتق !!

الكل يلتقط أنفاسه الأخيرة قبل الصعود للقارب المطاطي.. هاهي تخلع شروشها واحدًا تلو الآخر.. هالَها أن شروشها طويلة جدًا وممتدة من فلسطين إلى سوريا.. إلى تركيا.. إلى بحر هائج !!

شروشها متشبتة متينة لن يخلعها فأس !!.. إنها تستطيل وتمتد وراءها وكأنها درع يحميها ..

النوم يداعب أجفانها.. قد تغفو في أيّة لحظة.. هاهي ترى نفسها تركض خلف أطفالها.. تتأكد من ملابسهم.. ألبست كلَّ واحد منهم بلوزتين وثلاثة بناطيل.. ووضعت حقائبهم الصغيرة فوق ظهورهم.. وتأكدت من سُتَر النجاة وصلاحيتها ..

عندما رأى المهرِّبُ الحقائب الصغيرة قال لها:

- إما أن تلقوهم في البحر وإما أن تعودوا من حيث أتيتم !

اضطُروا لرمي حقائبهم في البحر.. كانت الجندرمة التركية تقف في عرض البحر؛ فقد كان هذا الوقت هو عزّ موسم التهريب.

دفعهم المهرب إلى القارب دفعا! كان القارب يتكون من طابقين.. الطابق الأعلى جعله للرجال ولمن خُط شاربُه من الأولاد..

والطابق السفلي جعله للنساء والأطفال.. الذين كان عددهم يفوق عدد الرجال بأضعاف مضاعفة فقعدوا (كبيس مخلل)

المهرب محترف ولديه شبكة علاقات واسعة كما يبدو.. فقد صعدوا للقارب على مرأى الجندرمة التركية دون أن يتعرض لهم أحد لاتفاق المهرب معهم كما يبدو للعيان ..

جلست بيسان على الطرف الأيسر من الباب بينما جلست خزامى على الطرف الأيمن ويحيى في حضنها.. أما عزالدين فقد كان في بداية القارب وأسامة كان مع الرجال في الأعلى.

كان القارب جديدًا كما قال المهرب وهذه أول دفعة من البشر تصعد إليه.. اكتمل الصعود للقارب.. اشتغل المحرك مع اشتداد سطوع ضوء القمر.. شق القارب طريقه بسرعة مخيفة متزامنة مع سرعة الموج وعلوِّه صوب جزيرة يونانية حيث سيسلمون أنفسهم لأول مخفر شرطة.. مضى القارب في موج كالجبال.. كل موجة وكأنها جبل تصعد ه في ثانية ثم يلقي بك في ثانية أخرى إلى أسفل نقطة فيه.. يلقي الموت صنارته مع كل موجة.. فتخال الصنارة في حلقك تزهق

روحك.. يثقل الخوف ويطول.. يقطع بكاء الأطفال وصياح النساء وعويلهن صوت المهرب.. يجفل الجميع فيما يصيح مهددًا:

«إن لم تسكتوا سألقي بكم في عرض البحر»

حينها علا الصوت والنحيب أكثر وأكثر ..

كان صوت المحرك عاليًا جدًا.. إلا أن صوت البكاء والعويل كان أعلى بكثير..

كانت خزامى تشد على يد ابنتها بيسان.. فجأة ارتخت يدها تمامًا.. القارب معتم لدرجة أنها لن تستطيع رؤية وجه ابنتها وتعابيره.. ولن تعرف ما حصل لها ..

تتحسَّس وجه ابنتها ونبضَها.. إنها مازالت على قيد الحياة.. ظلت خزامى تتحسس جسد ابنتها لتتأكد أن الأمر لا يعدو أن يكون حالة إغماء..

تبتعد فلسطين أكثر.. تبتعد سوريا أكثر.. يعلو الموج فيهبط القلب في القاع.. تتشهد خزامى.. يدخل الماء إلى القارب.. يوقظها رذاذ الماء ورائحة الزعتر البري .. لا تدري إن كانت تحلم أم أن الأمر حقيقة !!

**انتهت**

**في عمان ١١/١١/٢٠١٩**

بذور هذه الرواية بدأت بالظهور بعد لقائي بفتاة فلسطينية عشرينية نحيلة في إحدى المؤتمرات التي كنتُ أشارك فيها ..

جاءتني مهرولة لتتأكد من شخصيتي .. حضنتها وفرحتُ بها أيّما فرح ..

تحدثنا مطولًا لأكتشف أنها ابنة مخيم اليرموك وأخذت تسرد لي نتفًا من حكايا الحصار والنكبة الثانية وما رافقها من تهجير ومرور على حواجز عدة لميلشيات مختلفة وانتهاء بركوبهم لقوارب الموت .. حكت كل ذلك بلقطات سريعة وموجعة .. كان الشريط يمر بسرعة مذهلة ولم أستطع التقاط أنفاسي !!

المشاهد الموجعة .. نحافتها الشديدة التي كانت بادية على محيّاها من آثار الجوع والحصار في مخيم اليرموك ألهمتني لأكتب حكاية الشتات الفلسطيني .. أخذتُ رقم هاتفها وعندما عدت لعمان بدأت بالتواصل معها لتدوين حكايتها ..

لم تكن رزان ملهمتي الوحيدة .. لكنها كانت ملهمتي الأولى وأنا أدين للكثيرين ممن دعموني وشكّلوا لديّ تصورًا كاملًا عن المخيم منذ نشأته وحتى لحظاته الأخيرة .. أدين بالشكر والعرفان للأديب الفلسطيني خليل الصمادي ولشادية ومؤيد وأحمد حيدر وغيرهم ممن رفضوا ذكر أسمائهم ..

وهناك من قدّم لي المساعدة وهو لا يعلم بذلك !!

كل الشكر لأبي ..

أبي الذي آمن بي منذ كنت طفلة صغيرة فدعمني وحرص على نشر كل المقاطع التي أكتبها في جريدة القبس الكويتية وأنا مازلت في الثانية عشرة من عمري ..

وإلى أولادي الذين كنت أركض بينهم وبين الورق .. والذين تورطوا معي بأجواء الكتابة وعايشوا رُعبها وقلقها وكثيرًا ما كانوا يهزّون عرش الورق لأصحو على طلباتهم ومشاكساتهم ..

ممتنة لزوجي صبرَه على عزلتي حتى انتهيت من القراءة ..

***

# الفهرس


الفصل الأول صيف ٢٠١٢ ..... ٥
الصغير يحيى ..... ٢٥
مفتاح الجنة بيد الجائع فإذا شبع أُخذ المفتاح ..... ٣١
العيون موطن الشوق وموطن الحزن ..... ٤٣
أن تفكر كشجرة مقلوعة ..... ٥٢
الحزن لا يبقى حزنًا واحداً... إنه يتناسل ويتكاثر ..... ٦٠
النار ستأكل الصامتين أولًا ..... ٦٦
إن النفس إذا جاعت صفا القلب ورقّ ..... ٧٣
ناي المخيم ..... ٨٤
القمر وُجد ليشهد عذابات المحبين ..... ٩١
أبو جهنم ..... ١٠٤
الموت لا يخون أبدًا .. لكنه يؤجل المواعيد ..... ١١٦
قد يعتاد المرء أحزانه كما يعتاد القنفذ أشواكه ..... ١٣٢
ميتة منذ زمن.. لكن لاتعرف موعد دفنها ..... ١٤٩
أبو فصيح ..... ١٧٣
إلى أنطاليا ..... ١٨٧
من يفتح ذراعه لخزامى؟ ..... ١٩٤
أرضنا بور رغم خصبها ..... ٢٠١
ألم يأنِ أوان الحياة؟ ..... ٢٠٥
المقابلة الصحفية ..... ٢١٤
كالفراش المبثوث ..... ٢٢٤


***